عزل اللغه عن القرآن الكريم
و آثاره المدمرة

الاستاذ الدكتور

عبده زايد

Scanned with CamScanner

فصل فى هدم اللغة العربية

(عزل اللغة عن القرآن الكريم)

حينما انتحر الشاعر اللبنانى المسيحى خليل حاوى فى ٢٠/٦/١٩٨٢ كتب الناقد رجاء النقاش مقالاً تحت عنوان: «**انتحار شاعر كبير**»، استهله بقوله: «فى أوائل الأربعينات انتحر فى مصر مستشرق يهودى، كان يعمل أستاذًا للأدب العربى فى جامعة القاهرة، وكان هذا المستشرق واسمه «**بول كراوس**» محبوبًا من تلاميذه، وأصدقائه الكثيرين فى مصر؛ ذلك لأنه كان محبا للعرب، مؤيداً لقضيتهم، واسع المعرفة بالتراث العربى، وكان إنسانًا بالغ الرقة، عميق العاطفة، وقد حدثنى عنه أستاذى الأديب العالم المرحوم الدكتور **عبد العزيز الأهوانى**، وكان الأهوانى معروفًا بعلمه ووطنيته وصدق عروبته، ولذلك كان حديثه عن المستشرق اليهودى عندى موضع ثقة، وقد قال لى الأهوانى: إن السبب الرئيسى فى انتحار «**بول كراوس**» هو إصرار اليهود على إقامة دولة إسرائيل، وكان «**بول كراوس**» يعارض قيام إسرائيل، ويرى في ظهور هذه الدولة خطراً كبيراً على العرب واليهود معًا، وقد توقع إذا ما قامت دولة إسرا ئيل أن يصبح بقاؤه فى مصر صعبًا، وكان قد أحب مصر، وأحب تلاميذه وكتبه فيها، فاعتبر أن حياته فقدت معناها وانتحر محتجًا»(١).

و«**بول كراوس**» هذا عين مدرسًا فى كلية الآداب بالجامعة المصرية سنة ١٩٣٦م بترشيح من المستشرق «**ماسينيون**»، وكانت الجامعة العبرية قد عرضت عليه أن يدرس بها، ولكنه آثر التدريس فى قسم اللغة العربية بآداب القاهرة وكان «كراوس» يدرس لمرحلتى الليسانس والماجستير، وكانت محاضراته لطلاب الدراسات العليا تدور حول التراث اليونانى فى اللغة العربية، وقراءة بعض النصوص العبرية فى الكتاب المقدس وشرحها(٢).

ولست أدرى ما علاقة اللغة العربية بالكتاب المقدس فى نصه العبرى، أو حتى

Scanned with CamScanner

فى ترجماته العبرية؟ ولكن هكذا رأى المستشرق اليهودى، ولم يكن الرجل محبا للعرب كما توهم الدكتور عبد العزيز الأهوانى فشهادة الدكتور عبد الرحمن بدوى التى طلبها رجاء النقاش[٣] تميل إلى أنه كان عضواً فى عصابة «اشترن» الإرهابية اليهودية، والشاهد هنا كان وثيق الصلة به منذ وصوله إلى مصر حتى انتحاره [١٩٣٦ - ١٩٤٤]، ولك بعد ذلك أن تفهم حقيقة الدور الذى كان يؤديه فى قسم اللغة العربية بكلية آداب القاهرة.

ولم يكن «بول كراوس» أول يهودى ولا آخر يهودى يتصدى لتدريس اللغة العربية فى جامعة القاهرة فى إطار «علم اللغات السامية ودرسها المقارن» تقول بنت الشاطىء: «فى جلينا كان المستشرقون اليهود يأخذون أماكنهم فى قدس الجامعة المصرية، أساتذة فى كلية الآداب، يعلموننا فقه اللغات السامية ودرسها المقارن، وتتولى أكبر دور النشر المصرية إخراج دروسهم مطبوعة إلى مجال التأثير العام»[٤]، ولم يكن لأسلافنا عهد بهذا العلم، ولا معرفة به. وقد برع اليهود فى هذا العلم، وسخروه لخدمة أهدافهم، ويكفي أن ترتكز الساميات كلها (أعراقًا ولغات) على نص فى الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين[٥] لتعرف صبغته اليهودية.

ولم يكتف هؤلاء اليهود - وغيرهم من المستشرقين - بتدريس اللغة العربية، بعد أن دخلوا إليها من باب «اللغات السامية» وإنما تصدوا لتدريس مختلف فروع التراث الإسلامى العربى، فى الجامعات الغربية والشرقية على السواء، وعلى يد هؤلاء تلقى آلاف من أبناء العرب والمسلمين دروس اللغة والأدب والفقه والتاريخ والفلسفة وعلم الكلام ومختلف العلوم والمعارف الإسلامية.

لكن تدريس هؤلاء للعقيدة والشريعة قد يجد نفوراً من الناس؛ فليس من المعقول أن أتعلم العقيدة أو التفسير أو الحديث أو الفقه والأصول على يد نصراني أو يهودى، خصوصًا إذا كانوا من رجال الدين، وكثير من المستشرقين كذلك -

لكن تدريس اللغة العربية يمكن أن تخف حدة النفور فيه أو تتلاشى، وربما لهذا كان تركيزهم على اللغة العربية ونصوصها وعلومها. وقد لخص المستشرق الفرنسى «يوستل» [١٥٠١م - ١٥٨١م] قيمة معرفة المسيحيين للغة العربية فيما يلى:

١ - لما كانت اللغة العربية لغة عالمية، فإن معرفتها تفيد فى العلاقات مع المغاربة والمصريين والشوام والفرس والأتراك والتتار والهنود.

٢ - اللغة العربية كتبت بها مؤلفات عديدة جداً مفيدة.

٣ - من يملك ناصية اللغة العربية يستطيع أن يبقر بطون أعداء الدين المسيحى بسيف الكتب المقدسة، وأن يفنى عقائدهم بواسطة عقائدهم هم»[٥].

ومن المعروف أن اللغة العربية ارتبطت فى تاريخها الطويل بالقرآن الكريم ارتباطًا وثيقًا، وأن علوم اللغة والأدب بمختلف فروعها قامت حول هذا الكتاب.

ومن البدهيات أنه لولا القرآن الكريم لما كانت اللغة العربية قد بقيت حتى الآن ولارتباط اللغة العربية بالقرآن خرجت من جزيرة العرب، ووصلت إلى كل مكان وصل الإسلام إليه، وأصبح أبناء الأمم الأخرى من جنود هذه اللغة، يبدعون فيها، ويحمونها ويدافعون عنها. وكما وحد الإسلام قلوب المسلمين وحّدت اللغة ألسنتهم، وبهذا أصبحت اللغة منتشرة فى القارات الثلاث آسيا وإفريقيا وأوربا وهو العالم المعروف آنذاك، وأصبح الإبداع العربى يشمل ما أبدع المسلمون بالعربية مهما اختلفت ألوانهم وأعراقهم، وهؤلاء لم يعرفوا العربية بدون الإسلام، ولم يعرفوا الإسلام بدون العربية وحتى الأمم التي كانت صلتها بالعربية محدودة لقلة الجنس العربى فيها، كتبت لغاتها بالحرف العربى، وقد وصل عدد اللغات واللهجات التى تكتب بالحرف العربى إلى نيف وثلاثين لغة منتشرة فى القارات الثلاث.

ومن أجل هذا ارتبط تعليم اللغة العربية والأدب العربى فى تاريخه الطويل

Scanned with CamScanner

بالمسلمين، وعلى الرغم من مشاركة غير المسلمين فى النهضة العلمية العربية فى مختلف فروعها فإنك قلما تجد أحداً من غير المسلمين يقوم على تدريس العربية وتعليمها والتأليف فيها؛ لارتباطها الوثيق بالقرآن الكريم والسنة النبوية.

ومازالت هناك بقية من هذه الظاهرة فى مصر، فمدى علمى أن كلية دار العلوم لا يدخلها النصارى، وأقسام اللغة العربية فى كليات الآداب تكاد تقتصر على المسلمين. ومن ثم فإن تدريس اللغة العربية يقوم عليه الأساتذة المسلمون، وأن خريجى أقسام اللغة العربية يتولون تدريس مادة الدين الإسلامى حتى ولو لم يكونوا متخصصين فيه، وأن كتب النصوص والمطالعة تضم فيما تضم آيات وسوراً كاملة من القرآن الكريم ونصوصا من الحديث الشريف، إلى جانب النصوص الشعرية والنثرية، وأن كتب القواعد حافلة بالآيات القرآنية.

وحينما يكون الأمر على هذه الصورة من ارتباط اللغة والأدب بالقرآن الكريم ارتباطا وثيقًا لا انفكاك له لا تكون هناك حاجة للبحث عن هويةالأدب، ولا تكون هناك ضرورة لافتعال خلاف أو جدل حول تسميته أدبا عربيًا أو أدبا إسلاميا، فالأدب العربى إذا انحرف عن التصور الإسلامى بدرجة ما كما فى الغزل الماجن والخمريات والهجاء الفاحش فإنه مرتبط ارتباطا وثيقًا بلغة القرآن دلالة وأداء وتراكيب وصوراً.

ولم يكن حل العلاقة الوثيقة بين القرآن والحديث واللغة والأدب ممكنًا أو متصورا فى ظل مناهج التعليم الإسلامية، فكان لابد أن تكون هناك مناهج تعليم أخرى تبشيرية أو علمانية يتولاها المستشرقون والمبشِّرون (المنصِّرون) ليتحقق هذا الهدف، ومن هنا عرض اقتراح على المؤتمر التبشيرى الذى انعقد فى القاهرة سنة ١٩٠٦ (قبيل إنشاء الجامعة الأهلية بمصر) بإنشاء جامعة نصرانية تقوم الكنائس بنفقاتها، وتكون مشتركة بين كل الكنائس المسيحية فى الدنيا على اختلاف مذاهبها، لتتمكن من مزاحمة الأزهر بسهولة، وتتكفل هذه الجامعة بإتقان تعليم اللغة العربية[٦].

ولم يكن الأزهر وحده هو حامى حمى اللغة العربية فى مصر، فقد كانت هناك دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى، ولكن الأزهر كان أعرق معهد علمى فى العالم الإسلامى وأكبرها على الإطلاق، ومن هنا كانت عيون المستشرقين والمبشرين مركزة عليه. ولما كان أمر هدمه وإعدامه غير ممكن ماديًا فإن الطريق الوحيد للقضاء عليه، أو شل فاعليته، وإطفاء نوره هو إيجاد البديل العصرى لهذا المعهد العتيق، البديل الذى يقدم نفس العلوم والمعارف الإسلامية والعربية، ولكن برؤية استشراقية تبشرية.

وحينما قُدِّم هذا الاقتراح كانت معظم الدول العربية والإسلامية تحت الاحتلال الغربى، وكانت اللغات الأجنبية قد فُرضت فرضًا على مراحل التعليم المختلفة فى أكثر من بلد عربى وإسلامى، وكانت الحملة على اللغة العربية قد بلغت ذروتها، وفى هذا المناخ صُوِّرت اللغة العربية على أنها لغة قوم، وليست لغة حضارة زاهرة انفردت بسيادة العالم قرونًا عديدة، شارك فى صناعتها وحراستها أجناس شتى بدين واحد وكلمة واحدة وتبعًا لهذه الدعوى أصبح الأدب العربي أدب قوم وليس أدب لغة عاشت فى ظل القرآن الكريم والحديث الشريف. وبعد أن كنا ندرس النص العربى دون نظر إلى جنس قائله، أصبحنا أمام رؤية جديدة، فتَّتت الأدب العربى إلى آداب، كل أدب منها ينكفئ على نفسه يجتَّر ماضيه، ويكتشف له طريقًا مستقلاً يقودنه إلى المستقبل، وبهذه الرؤية دخل بديع الزمان الهمذانى وابن سينا والثعالبى وقابوس بن وشمكير والغزالى والفخر الرازى والزمخشرى والشهر ستانى ومن على شاكلتهم تاريخ الأدب الفارسى وعُدُّوا من أدباء الفرس»[٧].

وهؤلاء نعرفهم فى تاريخنا من أعلام أدباء المسلمين وعلمائهم ومفكريهم، ومن أعلام العرب أيضًا حتى وإن كانت أعراقهم غير عربية، فالعبرة باللغة التى يعبرون بها عن مشاعرهم وأحاسيسهم ورؤاهم، وإن كان لبعض هؤلاء نتاج بالفارسية فإنه لا يمثل الكثرة الكاثرة من نتاجه، فنتاج هؤلاء عربى فى غالبيته، ومع هذا فإنهم يخرجونهم من العرب ويدخلونهم الفرس، اعتمادا على أعراقهم.

Scanned with CamScanner

وقد كان المستشرقون حريصين على تكريس هذه الرؤية وهذا المنهج، وكانوا حريصين على أن تسود هذه الرؤية فى المناهج الدراسية فى بلادنا، وكان الطريق إلى ذلك هو إيجاد البديل للمعاهد الإسلامية العربية.

ومنذ أن افتتحت الجامعة الأهلية فى مصر (جامعة القاهرة الآن) فى نهاية العقد الأول من هذا القرن الميلادى توافد عليها أصناف شتى من المستشرقين اليهود والنصارى يعلموننا لغتنا وآدابنا وتاريخنا وحضارتنا وشريعتنا وعقيدتنا بمناهج لم نألفها ولم نعرفها، وإن كان لها بريق ولمعان، ولم يكن بول كراوس أول هؤلاء ولا آخرهم، ولم يتوقف عمل هؤلاء عند صياغة عقول أبناء هذه الأمة صياغة جديدة فى قاعات الدرس، وإنما تخطاه إلى رسم السياسة العلمية فى جامعاتنا المدنية عن طريق رئاسة مجالس الأقسام وعضوية مجالس الكليات، ولم يكن هذا عملاً علميًا فقط وإنما كان عملاً سياسيًا، اقرأ معى شهادة الدكتورة بنت الشاطىء «**حط الاستعمار بأشد وطأته على جامعاتنا الحديثة، فدس لها جنوده فى زى العلماء، فكانت لهم أكثر كراسى الأستاذية فى الكليات ذات الحساسية، مثل كلية الحقوق التى يتخرج فيها رجال السياسة والتشريع والقضاء، وكلية الآداب التى تدرس شخصية الأمة فى لغتها وأدابها وتاريخها وفلسفتها وآثارها، وما تلقت وتتلقى من روافد فكرية، شرقية أو غربية، قديمة أو حديثة.**

فى جامعة القاهرة مثلاً - وإليها وقتئذ كانت رحلة طلاب العلم من مختلف أقطار الوطن العربى - كان الأساتذة الأجانب يرأسون أقسام اللغات الأوربية الحديثة والقديمة، وقسمى الآثار المصرية والإسلامية (؟!) (الاستفهام والتعجب من بنت الشاطىء)، ويختارون لها من أعضاء هيئة التدريس، ويرشحون لبعثاتها فى أوربا، ويمثلون الأقسام فى مجلس الكلية، ويُكَوِّنون جبهة واحدة غالبة، فى توجيه خطتها ومناهجها، ومناقشة كل قرار لأى قسم من الأقسام الأخرى فى الكلية.

ومعهم فى المجلس عضوان أجنبيان من خارج الكلية، تتدخل السفارات الأجنبية فى ترشيحها، وترشيح سائر الأساتذة ذوى الكراسى وغيرهم، وتتنافس على شغل الكرسى الذى يخلو من أحدهم، وتعد نجاحها فى الظفر بالكرسى لأستاذ من رعايا دولتها عملاً سياسيًا من الدرجة الأولى»[٨].

ولم يقف الأمر عند هذه الجامعة المدنية وحدها، وإنما أقيمت الجامعة النصرانية على مقربة من الأزهر الشريف لتعليم العربية وهى الجامعة الأمريكية، وللهدف نفسه أقيمت الجامعة اليسوعية والجامعة الأمريكية فى بيروت، وإذا كان الأجانب محتاجين إلى التكتل فى الجامعة المصرية للتخطيط للتعليم واتخاذ القرار فإنهم فى هذه المواقع الجديدة ينفردون بكل شىء، وبهذا تحققت توصية المؤتمر التبشيرى بصورة ما.

ولم يكن من الممكن أن يستمر المستشرقون فى مواقعهم فى جامعاتنا المدنية الحديثة إلى الأبد، فالمهم أن تستمر مناهجهم ورؤيتهم، وأن يكون لها بريق ولمعان، وقد تباعدت المسافة شيئًا فشيئًا ما بين الأدب العربى وبين مصدريه الكبيرين القرآن والحديث، فى الوقت نفسه الذى توثق ارتباطه بمصادر أخرى لم تكن له بها صلة فى يوم من الأيام. وهكذا انفتحت المناهج الجديدة فى الإبداع والدراسات النقدية معًا على الكتاب المقدس الذى كان بول كراوس يقرأ بعض نصوصه العبرية ويفسرها ويشرحها لطلاب الدراسات العليا فى قسم اللغة العربية فى آداب القاهرة فيما بين ١٩٣٨/١٩٤٢، وانفتحت كذلك على أساطير الشعوب الأخرى، وخاصة الوثنيات اليونانية.

وإذا نحن بإزاء لون جديد من الأدب يُرَوَّج له بكل الوسائل والسبل، وتُسَلَّطُ عليه الأضواء، ويُدعى أشياعه إلى المؤتمرات الدولية، وإلى الجامعات العالمية، ويرشَّحون لنيل الجوائز الكبرى، وهو فى الحقيقة أدب غريب عنا حتى وإن كتب بحروف عربية.

Scanned with CamScanner

وما دامت الرؤية الجديدة للغة والأدب تقوم على أنها لغة قوم وأدب قوم، فليبعث كل قوم لغتهم - وبمعونة المستشرقين والمبشِّرين أيضًا -، ومن هنا رأينا الدعوات تظهر فى شرق وغرب فى ضرورة بعث اللغة القومية، ولتمسك بها، وكتابتها - حتى وإن لم تكن مكتوبة قبل اليوم - والتأليف فيها؛ فالأكراد لابد أن يكون لهم أدب كردى ناطق باللغة الكردية وإن تمسكوا بإسلامهم، والزنوج فى جنوب السودان لابد أن تكون لهم لغة مكتوبة، وأدب مدوَّن فى هذه اللغة، والنوبيون فى جنوب مصر لابد أن يكون لهم أدب نوبى ناطق بلغتهم، والبربر فى المغرب العربى لابد أن يكون لهم أدب بربرى ناطق باللغة الأمازيغية، . . . وهكذا، والذين ليس لهم لغة، قومية غير العربية عليهم أن يتمسكوا بعاميتهم وأن يحولوها إلى لغة مكتوبة لها قواعدها وأدبها.

وهذه الدعوات كانت تقوم عليها مؤسسات وأحزاب، وأسلحة وأموال، ومطابع وصحف، ولم يكن يخفى على النظر الثاقب من يقف وراء هذه الدعوات التفتيتية، ولم يكن الهدف من وراء هذا كله خافيا على ذوى البصيرة؛ فلم يكن المتشرقون والمبشرون والاستعمار حريصين على هذه الأعراق، ولا ساعين فى مصالحها، ولكن هذه الدعوات كانت غايتها البعيدة هى قطع الوشائج بينهم وبين الإسلام، ولو بقيت اللغة العربية حية على ألسنتهم فستقودهم حتما إلى التراث الإسلامى وإلى الإسلام، ولقد كان «ليوطى» الحاكم الاستعمارى الفرنسى فى المغرب صريحًا فى هدفه حينما قال عام ١٩١٢: **«إن اللغة العربية تجر إلى الإسلام؛ لأن هذه اللغة تتعلم فى القرآن، وهذا فى حين أن مصلحتنا تحتم علينا العمل على جعل البربر يتطورون خارج إطار الإسلام، ومن الناحية اللغوية يجب أن نعمل على الانتقال مباشرة من البربرية إلى الفرنسية»**(٩).

وقد كان من نتيجة هذا التشتت أن انكفأت كل جماعة على نفسها تنفخ فى نارها وتحاول أن تجعل لها شأنًا تنافس به الأخرى أو تقضى عليها، وانقطعت بهذا

أحبال التواصل والتلاقى بين أبناء الأمة الواحدة، وبعد أن كان العربى يتلقى القصيدة الجيدة فيرويها، ويستمتع بها، ويدخلُها العالم فى بحثه ودرسه، دون أن يسأل عن جنسية صاحبها وعرقه، لا فرق فى ذلك بين أدب يُكتب فى أقصى بقعة فى شرق آسيا وصل الإسلام إليها وتَعَرَّب لسانُها، وبين أقصى بقعة فى غرب أوربا، فالأدب العربى - أيا كان مصدره - يخاطب وجدانى، ويصدر عن مشاعرى وأحاسيسى، وأجد فيه نفسى، فلغته هى لغتى، وتجربته مرتبطة بتجربتى برغم تباعد الأوطان والأزمان، بعد كل هذا وجدنا أنفسنا أمام أدب قطيعة وتباعد؛ فالأدب الذى يكتبه أبناء شبه القارة الهندية باللغة العربية، أو أبناء أفريقيا جنوب الصحراء لا يعرفه أحد، ولا يدخل فى درس الأدب العربى، دعك مما يكتبون بلغاتهم، الأهلية فهذا أبعد ما يكون عنا، حتى وإن صدر أدبهم عما يصدر عنه أدبنا من تصور إسلامى، أو من تجربة مشابهة، لتشابه واقعنا وواقعهم، وما يكتبه أبناء الأعراق المختلفة فى الوطن العربى لا يقرؤه إلا أبناء جنسهم.

أما الذين يكتبون أدبا عربيًا من أبناء هذه الأمة، فإن كانوا ينطلقون من اللغ التى أسسها القرآن والحديث فهم متخلفون رجعيون منقطعون عن العالم م حولهم ولا يعيشون عصرهم، فالأدب العصرى لابد أن تنبتَّ صلته بماضيه، و مانع أن يرتبط بماضى الآخرين، حتى وإن كان موغلا فى القدم.

وفى هذا المناخ وصف المؤرخ البريطانى **«أرنولد توينبى»** اللغة العربية بأنها ل دينية، وهذا يعنى أنها لغة ترتيل وصلوات ونسك وأدعية، أما أنها لغة ع وحضارة وأدب وفن فلا، فليقرأ المسلم القرآن فى أى بقعة من الأرض بالعر الفصحى، وليؤذن بها إن شاء، وليدعُ بها ما استطاع، فهذا أمر لا حظر فيه!!.

وفى ندوة التراث المشترك بين العالم العربى الإسلامي والغرب التى انعقدت جامعة الإمارات سنة ١٩٨١ ردد المفكر الفرنسى **«بييردوسى»** مقولة حف ووعاها وهى: **«لا يمكن أن يكون المرء مسلمًا صالحًا إذا لم يكن عربيًا قليلًا»**، و

Scanned with CamScanner

لا حاجة أيضاً لأن يكون عربياً تماماً ليكون مسلماً صالحاً»[١٠]. وهذه المقولة تلتقى مع مقولة تويني في غايتها، فالعربية يمكن أن يكتفى فيها بالقليل الذى تصلح به العبادة، ولا حاجة للمسلم بما يزيد على ذلك.

ومن المفارقات الغريبة - وإن كان لا مفارقة هناك - أن في الوقت الذى كانت تدق المسامير فيه في نفس اللغة العربية وهي في عنفوانها وحيويتها كانت هناك أيد أخرى تمتد للغة ميتة تنزع عنها أكفانها وتنفخ فيها روحا جديدة، هذه اللغة هي اللغة العبرية، وهي لغة لم يكن قد بقي منها شئ في حياة اليهود إلا ما يقيم به الكهنة والحاخامات عبادتهم، أما لغة الحياة فقد كانت لغة «اليديش» وهي اللغة الشعبية اليهودية التي كانت شائعة على ألسنة أغلب اليهود[١١]، لكن اليهود الذين كانوا يسعون إلى إقامة دولتهم على أرض الميعاد أدركوا أن هذه الدولة لن تقوم لها قائمة إلا إذا ارتكزت على التوراة عقيدة ولغة ومنهج حياة، ومن هذا المنطلق سعى أبناؤها إلى بعث هذه اللغة من مرقدها، فلما قامت الجامعة العبرية في فلسطين سنة ١٩٢٥ اتخذت اللغة العبرية لغة للتدريس في جميع العلوم[١٢]، وهكذا ترى أن في الوقت الذى كان يقرأ فيه بول كراوس نصوصاً من الكتاب المقدس مع طلاب الدراسات العليا في كلية الآداب بالجامعة المصرية، ويباعد هو ومن سبقه ومن لحق به من المستشرقين بين اللغة العربية وبين القرآن الكريم كانت الجامعة العبرية تربط بين اللغة العبرية وبين الكتاب المقدس برباط وثيق لا ينفك، كانت في الوقت نفسه تربط بين هذه اللغة وبين الحياة العصرية، فإذا كانت اللغة الحية التي استوعبت تراث الإنسانية عصوراً طويلة عاجزة - في زعمهم - عن تدريس العلوم الحديثة، فإن العبرية الميتة والتي لم يكن لها سابق تعلق بالعلم والمعرفة تستطيع أن تستوعب حضارة العصر مع احتفاظها بطابعها الديني. يقول إسحاق بن يهودا - وهو الذى خاض معركة إحياء اللغة العبرية حتى تصبح لغة الحياة -: «إن العودة إلى العبرية هو منطلق العودة إلى أرض إسرائيل، وأنه بهذا السبيل فقط يمكن تحقيق الخلاص لليهود، فكما أن اليهود لا يمكن أن يصبحوا أمة

في دولة إلا إذا عادوا إلى أرض أجدادهم كذلك لا يمكن أن يكونوا أمة في دولة دون العودة إلى لغة أجدادهم، لا ليستعملوها في الصلوات فحسب، بل في حديث الشيوخ والشباب والنساء والأطفال وكل شئون الحياة، وفي جميع ساعات الليل والنهار، مثلما تفعل جميع الأمم في دولها»[١٣].

وقد وضع هذا الرجل الذى مات قبل قيام الجامعة العبرية بثلاث سنوات خطة لإعادة اللغة العبرية للحياة، منها تشكيل لجنة دائمة متخصصة في تطوير وتعزيز العبرية[١٤]، وقد رأت هذه اللجنة: «أن الحركة الصهيونية كانت ترى أنه لا يمكن الفصل بين الدين واللغة من جهة، وبين الدين والسياسة من جهة ثانية، ولا بين اللغة والأهداف السياسية من جهة ثالثة»[١٥]، لكن هذا الارتباط الوثيق بين العبرية والدين وجد من يتمرد عليه من الشباب الذين استهوتهم المذاهب الحديثة في الأدب والنقد، فماذا كان موقف وزير الثقافة الإسرائيلى من هذا التمرد؟

إليك القصة كما يرويها د/ حسن ظاظا في رده على سؤال وُجِّه إليه في نادى جدة الأدبى عقب محاضرة له بعنوان: «والآن ماذا نريد من الأدب» في ١٤٠٣/٨/٩، قال: «كان إيجال ألون» وهو رجل عسكرى وزيرا للزراعة ومسئولاً أيضاً عن وزارة الثقافة الإسرائيلية، فقام شباب من أنصار الأدب الحديث في اللغة العبرية وقدموا شكوى ضده لرئاسة مجلس الوزراء، اتهموه فيها بأنه رجل رجعى، ورجل متزمت، ورجل يريد أن يخنق الشباب ويضيق عليهم جداً لأسباب هى الآتى:

قالوا نحن كلنا شعراء وقصاصون وأدباء، والحكومة الإسرائيلية تعطى ورق الطباعة بكوبونات مخصوصة، فيكون مدعوما من الدولة ورخيصاً، وبالتالى يمكن طبع هذه الأشياء بسعر رخيص، والدولة التى تطبع لبعض المؤلفين لا تعطينا هذه الكوبانات للورق، ولا تطبع لنا، وإذا طبعنا على حسابنا لا تسمح لأية مؤسسة ثقافية تحت إشراف الدولة من مؤسسات التوزيع، وهذه كثيرة عندهم، بتوزيع

Scanned with CamScanner

الكتاب، فنحن منبوذون ومضطهدون ومسحوقون فى هذا النظام الذى قرره «إيجال آلون».

وظهرت هذه الشكوى على صفحات الجرائد، وأثارت ضجة كبيرة، وقال آلون: أنا مستعد للإجابة على أسئلة هؤلاء الشباب فى ندوة إذاعية تعقد كل ١٥ يومًا إلى أن يقنعونا أو يقتنعوا هم.

تبعت هذه الندوات، مناقشة حامية جداً جداً فى منتهى الحدة، فكان الرجل يقول لهم: نحن هنا في هذا البلد، وحجتنا الوحيدة فى عمل كل ما عملناه من عنف إقامة دولة التوراة، فإذا أحللنا فى الأدب العبرى محل التوراة كلاماً مستوردًا من تشيكوف ومن ديستويفسكى ومن كافكا ومن فيكتور هوجو ومن شكسبير فكأننا بعنا الصك الوحيد الذى نملكه لنقول إننا هنا بحجة تاريخية معينة. وسنشبه أناسا آخرين مستعمرين أوروبيين جاءوا واحتلوا فلسطين، وهذه التهمة توجه إلينا حتى ومعنا التوراة، فما بالكم إذا فقدناها.

ثم إن الحرف الذى كتب به موسى شريعته أنا لا أسمح أبدا أن يتبذل فى وصف المواخير، وفى وصف عورات النساء والرجال تحت ستار الأدب الحديث، فالكلمة العبرية لها قدسية، وهى التى يجب أن نعيش بها، ولأجيال طويلة حتى يصبح لهذه الدولة تاريخ؛ لأنها حتى الآن ليس لها تاريخ، وتاريخها كله أقل من عمر إنسان واحد، وبالتالى فأنتم منفيون من مائدة الأدب العبرى إلا أن تكون هناك ظروف أخرى تسمح باستقرار تقاليد تراثية معينة، وبعد هذا يخرج عليها من شاء، أما الآن فهذه حركات هدامة لن أسمح بها، وقالها أكثر من مرة، واستغرق الحوار أكثر من ثلاثة أشهر فى ست ندوات، كانت كل ندوة منها تستمر ساعة فى الإذاعة، والرجل مصرّ على هذا، ويقول لهم: أنتم ما عندكم وعى تاريخى لقدسية اللغة التى تستعملونها، أنتم تجرونها فى أوحال أوروبا وعلى ثلوج أوروبا، وتجدونها فى موبقات أوروبا، فى المارجوانا وفى الحشيش وفى الخمور وفى الإباحية

المختلفة. بينما نحن مازلنا نريد أن نقيم تراثنا لهذا المجتمع الذى لم يتجاوز عمره عمر شاب (وقتها كانت دولة إسرائيل عمرها ٢٠ سنة)[١٦].

وأنا هنا تعمَّدت أن أنقل هذا الكلام على طوله لأهميته، ولنعرف الفرق بين موقفنا من لغتنا الحية، وموقفهم من لغتهم الميتة، اللغة هناك مقدسة، ولا يسمح لأحد تلويثها باسم الحداثة والعصرية والمذاهب الجديدة، واللغة هنا لابد أن تدنَّس على يد دعاة الحداثة والعصرية والمذاهب الجديدة، والموقف هناك صارم أمام أى خروج على هذه اللغة المقدسة، لأن القضية قضية مجتمع ودولة وأمة تريد أن يكون لها كيان متميز، والموقف هنا مائع أمام هذه الموجات المتعاقبة من تدنيس اللغة وهتك عرضها، وتفكيكها وتدميرها من خارج ومن داخل.

وحينما اقتضت الضرورة هناك سنَّت القوانين الصارمة لحماية اللغة، فاللجنة التى تشكلت لتطوير اللغة العبرية وتعزيزها تحولت عام ١٩٥٣ إلى مجمع لغوى، و سجل المجمع بقانون، وأعطى القانون «السلطة للجميع فى أمور النحو والصرف والمصطلحات، وبذا أصبح لزاما على جميع المؤسسات والهيئات التعليمية والدوائر الحكومية والبلدية التقيد بقرارات المجمع وإنتاجه»[١٧].

ومما ينبغى التنبيه إليه أن اللجنة فى بداية تشكيلها كانت قد «قررت بالإجماع عدم اقتراض أية كلمة من أية لغة أوروبية حتى ولو كانت دارجة فى الاستعمال»[١٨].

وهكذا قام اليهود بدورين متناقضين (بل متكاملين) فى وقت واحد وفى منطقة واحدة، فبالقدر الذى كانوا يباعدون فيه بين اللغة العربية والأدب العربى وبين القرآن الكريم كانوا يرفضون رفضًا قاطعًا أى مساس بقدسية اللغة العبرية، وارتباطها هى والأدب العبرى بالتوراة.

وحينما كانوا يعلموننا فى معاهد العلم العصرية وخارجها أننا لكى نعيش فى

Scanned with CamScanner

الهوامـــش

(١) ثلاثون عامًا مع الشعر والشعراء: رجاء النقاش - ص٤٩٥، ط أولى - دار سعاد الصباح ١٩٩٢م.

(٢) موسوعة المستشرقين - د/ عبد الرحمن بدوى - ص٤٦٦ - ط. ثالثة - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٩٣م.

(٣) قال الأستاذ رجاء النقاش فى هامش ص٤٩٥: «ما زالت شخصية «بول كراوس» وأسباب انتحاره من الأمور الغامضة التى لم يقطع فيها أحد الباحثين برأى يقينى، وأقرب علمائنا الأحياء القادرين على تقديم معلومات دقيقة حول «بول كراوس» هو الدكتور عبد الرحمن بدوى الذى كان تلميذاً وصديقًا للمستشرق اليهودى.

(٤) الإسرائيليات فى الغزو الفكرى: د/ عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) - ص٦٥ - معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٥م.

(٥) موسوعة المستشرقين - مرجع سابق - ص١٣٦.

(٦) الغارة على العالم الإسلامى: أ.ل شاتليه - ترجمة محب الدين الخطيب ومساعد الباقى - ص٢٢. المطبعة السلفية بالقاهرة.

(٧) الأدب الإسلامى ضرورة: د/ أحمد محمد على، ص٦٠، رابطة الجامعات الإسلامية - دار الصحوة - ١٩٩١م. عن الموسوعة الثقافية - دار الشعب بمصر.

(٨) الإسرائيليات فى الغزو الفكرى - مرجع سابق - ص٦٠.

(٩) المشروع الفكرى لسلامة موسى - د/ محمد عمارة - الحلقة الرابعة الحياة اللندنية - ١٣/ ٥/ ١٩٩٤م. عن: تطور الوعى القومى فى المغرب العربى - محمد عابد الجابرى.

(١٠) عن بحث: التحدى الثقافى الإعلامي - د/ عائض يوسف صوفان - منشور ضمن: وقائع ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافى لدول الخليج العربى - مسقط ١٤٠٥/ ١٩٨٥ - صـ٢٧٥.

Scanned with CamScanner

(١١) راجع مقال: العبرية الصهيونية واليهودية الشعبية - د/ حسن ظاظا - مجلة الفيصل - العدد ٢١٢ - صفر ١٤١٥ ص٦.

(١٢) المجامع اللغوية ودورها فى تعزيز اللغات - زكريا أبو حمدية - مجلة عالم الفكر الكويتية - المجلد ١٣ العدد الثانى - يوليو/ سبتمبر ١٩٨٢ - ص٢٧٤.

(١٣) السابق ص٢٧٣.

(١٤,١٥) السابق ص٢٧٢.

(١٦) محاضرات النادى الأدبى الثقافى بجدة - المجموعة الثانية ص٥٨١ - ٥٨٣.

١٤٠٦ - ١٩٨٥م.

(١٧) المجامع اللغوية - مجلة عالم الفكر الكويتية - مرجع سابق ص٢٧٥.

(١٨) السابق ص٢٧٣.

(١٩) موسوعة المستشرقين - مرجع سابق ص٤٦٦.

●●●

ثانيًا: قسم أصول اللغة

أثر الواقعة فى التطور اللغوى (عرض ومناقشة)
د. على بن عبد الله القرنى

٢- القاف العربية صورها النطقية وأبدالها
د. عبد الكريم محمد حسن جبل

٣- دراسات لهجية فى المحيط لابن عباد (الجزء الأول)
أ. د/ على محمد إبراهيم

٤- الفعلان بعث وأرسل فى القرآن الكريم
د. ناصر على عبد النبى

٥- التضمين والاقتباس
د. نور الهدى لوشن

٦- أثر اللهجة المحلية فى لغة الشعر
د. عبد التواب مرسى الأكرت

٧- أحكام نون الوقاية التركيبية من منظور علم الأصوات
د. على إبراهيم محمد

٨- مبتكرات النبى ﷺ اللغوية
د. محمود إبراهيم حسن إبراهيم

Scanned with CamScanner

أثر الواقعة فى التطور اللغوى

عرض ومناقشة

إعداد

د/ على بن عبد الله القرنى

جامعة طيبة - كلية التربية والعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

Scanned with CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

أبادر و أقول : قصدي من الواقعة ما نَدَّ عن أحد الألسنة؛ نتيجة أخطاء السَّمع ،أو الكلام،أو القلم (التَّصحيف)، أو نتيجة من نتائج الآفات الصَّوتيَّة ؛التي أصابت الجهاز النُّطقي للإنسان .و هي بضدِّ الظَّاهرة؛ التي تَّسم بالفشوِّ على ألسنة النَّاطقين في المجتمعات ؛ حتَّى أصبحت عُرْفا لغويّا لدى أبناء تلك اللُّغة .

و قد أفدت هذين المصطلحين من علم الاجتماع ؛ فالواقعة ما يطلق على المشاهد و المواقف الفرديَّة[1] ، في حين أنَّ الظَّاهرة ما يفرضه العقل الجمعي ، و يخضع له الأفراد ، و تتسم بالثَّبات عبر الأجيال[2] .

و لما كانت اللُّغة إحدى الظَّواهر الاجتماعيَّة رأيت الاستفادة من هذين المصطلحين في مناقشة هذه المسألة غير أنِّي قيَّدتها ــ هنا ــ بالجانب اللُّغوي .

وذهب لفيف من العلماء في العصر الحديث إلى أنَّ عددا من الظَّواهر اللُّغوية تعود في نشأتها إلى أخطاء الأطفال، أو أخطاء السَّمع، أو الكلام، أو نتيجة من نتائج الآفات الصَّوتيَّة؛ التي أصيب بها الجهاز النُّطقيُّ للإنسان .

و من ذلك : ما ذهب إليه دي سوسير ؛ حين رأى أنَّ التَّغير ؛ الذي ظلَّ مفضَّلا لعدة سنوات ،يعزو التَّغيُّرات – في النُّطق- إلى ثقافتنا الصَّوتيَّة في مرحلة الطُّفولة، غير أنَّ الطِّفل ينجح في نطق ما يسمعه بعد كثير من المحاولات و التَّجارب و التَّصحيحات ، و قرَّر أنَّ الأخطاء ؛ التي لا تجد مصحِّحا سوف تستمرُّ مع الفرد ، و تثبت مع النَّاشيء [3] .

وهذا الدكتور إبراهيم أنيس ــ عَقِبَ حديثه عن الإبدال بين الباء و الميم ــ يقول : " وهذه الظَّاهرة ليست إلا نتيجة أخطاء الأطفال في البيئة المنزلة؛ التي لا يجد فيها الطِّفل فرصة كافية لإصلاح أخطائه ، فيشبّ عليها ، و تصبح فيما بعد نطقا جديدا في جيله "[4].

و لم يكن له سند مكين من الواقع اللُّغوي في معالجة هذه المسألة ؛ إذ بنى ذلك على التَّخيُّل ، فقال : " فلنتصوّر بيئة منعزلة اجتماعيا، أو غير مستقرَّة على حال ، لا يجد فيها الأطفال من

[1] فصول في علم الاجتماع ١٧٤ .
[2] علم الاجتماع و مدارسه ٢٩٨ – ٢٩٩ .
[3] فصول في علم اللُّغة العام ٢٦١ .
[4] في اللَّهجات

رعاية الآباء ما يستحقُّونه ؛ و ذلك لانشغال الرِّجال بأمور الحرب، أو السَّفر في تجارة زمنا طويلا ، كما أنَّ النِّساء منصرفات عن أبنائهن بشئون الحياة العسيرة الشَّاقَّة ، و لا يجدن من الوقت– مع ما هنَّ فيه من مشقة و عسر– ما يكفي للنَّظر في شئون أطفالهن، و التَّحدُّث إليهن حديثا هادئا وادعا؛ يصلح من نطقهم، و يرشدهم إلى الصَّواب "[1] و قرَّر أنَّ الأطفال؛ الذين لمَّا تكتمل مراحل نطقهم، يلازم بعضهم بعضا ، و يأخذ الكبير فيهم مكان الأم، أو الأب ، فإذا شبّ هذا الجيل احتفظ ببعض أخطاء الطُّفولة؛ التي تصبح– فيما بعد– عنصرا معترفا به في لهجتهم .[2]

و تابعه في ذلك د. أحمد علم الدِّين الجندي؛ الذي قرَّر " أنَّ بعضا من ظواهر الإبدال قد ترجع إلى خطأ الأطفال، و انتقال اللُّغة من السَّالفين إلى الخالفين "[3]. و كذلك د . عبد العزيز علام؛ الذي عدَّ ذلك مظهرا من مظاهر تأثير الفرد في اللُّغة؛ حيث إنَّه– لظروف معيَّنة– قد يغيِّر في طريقة نطق بعض الأصوات ، و مع عدم التَّربية اللُّغوية ، و تصويب الأخطاء في مراحل الطُّفولة، يبقى هذا التَّغيير في لغة هذا الفرد، و ينتشر إلى الآخرين ، و مع مرور الزَّمن يصبح هذا الخطأ جزءاً من النِّظام اللُّغوي ، مقرِّرا أنَّ كثيرا من مفردات الإبدال، و التَّرادف، ترجع في منشئها إلى هذا العامل .[4]

و من هذه الأخطاء: ما يقع فيه بعض الأطفال من تغيير في ترتيب أصوات الكلمات ، و هو ما يعرف بالقلب المكاني ، يقول د . إبراهيم أنيس : " و من بين الأخطاء– التي قد تعرض للنَّاشئين– تغير في ترتيب أصوات الكلمات "[5] و دلَّل على ذلك بعقد موازنة بين العربيَّة الفصحى، و لهجة الكلام المصريَّة ؛مثل : بحلق : حملق ،و جوز : زوج ، و خفس : خسف .[6]

أمَّا د. عيد محمَّد الطَّيِّب،فقد ناقشها في ضوء الفصحى ؛ إذ قال : " و ربَّما لم يصحِّح الخطأ فيشيع و يذيع ؛و يكتسب حقَّ الوجود اللُّغوي ، يدلُّ على ذلك احتفاظ معجماتنا بالصُّور

[1] السَّابق .
[2] السَّابق.
[3] اللَّهجات العربيَّة في التُّراث ١/ ٣٥٤ .
[4] النُّموُّ اللُّغوي و الطُّفولة ، جامعة الأزهر ، مجلة كليَّة اللُّغة العربيَّة بالقاهرة ، ع ٨ ، ١٩٠ .
[5] في اللَّهجات العربيَّة ٢٣١ .
[6] السَّابق .

Scanned with CamScanner

معا: الأصليَّة، و المقلوبة؛ مما يدلُّ على استعمالهما معا "[1].و رأى أنّ المتكلّم قد يكون في أثناء الكلام يفكّر في أمر يشغله،أو يعجله ، فيسارع إلى الكلام باللّفظ مختلا في ترتيب الحروف ، و قد يسمع ذلك طفل في طور التّلقي، فيحاكيه دون أن يجد مصحّحا لهذا الخطأ فيشيع ، و بمرور الوقت يصير من الألفاظ المعتمدة ؛ معوّلا في ذلك على العرف اللّغوي؛ الذي لم يعد ينكره . و قد يجد الطّفل أنّه في مرحلة تلقّي اللّغة مطالب في حفظ اللّغة بأمور : حفظ اللّفظ بأصواته المعيَّنة ، و حفظه بالأصوات المرتّبة بترتيب معين ، و حفظ ذلك مقرونا بدلالة معيّنة ، فيهتمُّ بالأمر الأوّل و الثّالث ؛ لأهمّيتهما في نظره ، و يتساهل في الأمر الثّاني ، فإذا أراد أن يستخرج اللّفظ من رصيده اللّغوي، وجد صعوبة في أدائه على الصّورة؛ التي رسمها [2].

في حين رجع الشّدياق ذلك إلى قلة المبالاة، واصفا الذين ارتكبوا القلب، و الإبدال، و اللّثغة بأنّهم قد جاءوا كلّ ما شان المستعربين من بعدهم؛ من تحويل الكلم و تحريفه ، فجعلوا القاف همزة في قرم و أرم ؛ أي: أكل ، و زنق وزنأ ؛ أي: ضيّق [3].

و من أخطاء الأطفال: أنّه قد يخطئ في عمليَّة القياس؛ فيولّد لنا كلمات كثيرة بعيدة عن الصّواب [4].يقول د . رمضان عبد التّوّاب : " أمّا إذا خالف هذا القياس ما شاع في اللّغة ، فإنّنا –حينئذ- نعلم أنّه من عمل الفرد، و ليس مما سمعه من قبل ، و هذا ما يسمّيه اللّغويون المحدثون باسم القياس الخاطئ "[5] و هو ما يراد به: " الميل العارض؛ الذي لا يمكن التّنبّؤ بحدوثه من كلمة أو صيغة إلى الخروج عن مدارها الطّبيعي في التّطوّر، و الدّخول في طبيعة كلمة، أو صيغة أخرى؛ لوجود مشابهة حقيقية، أو متوهّمة بينهما "[6] و من ذلك: ما ذهب إليه د . إبراهيم أنيس في باب " كرُم " ؛إذا رأى أنّه باب غريب؛ لا يخضع لقانون المغايرة ، و لا نكاد نلحظ فيه أثرا لحروف مجاورة، و رأى أنّه "يمكن أن نفسّر بعض هذه الأفعال على أنّها نشأت عن طريق القياس الخاطئ false analogy وهو ما تقع فيه الأجيال النّاشئة، ثم يشيع بعد ذلك حين يصبح الصّغار كبارا . ففي البيئات البدائيّة- حين ينعزل الجيل الصّغير

[1] اللّغة العربيّة في مواجهة الحياة ١٨٨ .
[2] الشّدياق ، و في فقه اللّغة من قضايا الأصالة ١١٩ .
[3] المحاسوس على القاموس ١٨٢ .
[4] في اللّهجات العربيّة ٢٣٢ .
[5] التّطوّر اللّغوي ١٠٠ .
[6] أسس علم اللّغة ١٤١

عن الكبار حولهم ، و حين لا تتاح لهم فرص إصلاح الأخطاء ،يقيس الأطفال- أحيانا- قياسا خاطئا بعض المشتقات ، و تنشأ في كلامهم صيغ جديدة، لا وجود لها في صيغ الكبار، ثم يصبح ما كان يُعدُّ خطأ معترفا به بين أفراد الجيل النّاشئ "[1].

و هناك ما يعرف بالفصل الخاطئ ؛ و ذلك كأن تلتصق بعض الأدوات بالكلمات المجاورة لها التصاقا شديدا؛ يؤدّي إلى التباس الأمر على السّامع، فيظنُّ أنّ الأداة مع ما دخلت عليه كلمة واحدة، فيستعملها بشكل جديد ، و هو بهذا يفصل بين عناصر الجملة بطريقة غير صحيحة [2].

ودلّل على ذلك د. رمضان عبد التّوّاب بواقعة حدثت لابنته و هي صغيرة؛ إذ سمعت أخاها يقول : " أنا معاي أربع تقلمة " فقالت : " و أنا عاوزة تقلمة زيّه " فالذي حصل هنا أنّها فصلت تاء التأنيث من أربعة ووضعتها مع كلمة " أقلمة " ، و هو الجمع الشّائع لكلمة " قلم " في العاميَّة المصريَّة . و رأى أنّ ذلك قد حدث في الفصحى، مستدلا على ذلك بما ذكره جرجي زيدان في الفلسفة اللّغوية في كلمة (مال) [3]؛ الذي رأى أنّها مكوّنة من: (ما) الموصولة و لام الجر؛ فاقتطعت (اللام)وضُمّت إلى(ما) فصارت مال ، و كانوا يريدون بقولهم : "مالك "الذي لك و مقتنياتك [4].

و قريب من هذا ما ذهب إليه الفرّاء من أنّ (منذ) مركبة من : (من) + (ذو) ثم حذفت الواو تخفيفا [5].

يقول أولمان : " قد يؤدّي الخطأ في تحليل الكلمات إلى نزع صوت من كلمة و إضافته إلى كلمة أخرى؛ تجاورها مباشرة "[6].

و رأى د . أحمد علم الدّين الجنديّ أنّ بعض أمراض الكلام كانت عاملا من عوامل التّطوّر اللّغوي ؛ فالإنسان المريض بالجيوب الأنفيَّة أو الزّكام- مثلا- إذا أراد أن ينطق بكلمة " حملت " فإنه ينطقها بالباء [1].

[1] من أسرار اللّغة ٥٥ــ ٥٦ .
[2] التّطوّر اللّغوي ١٤٥ .
[3] السّابق
[4] الفلسفة اللّغوية ١٠٥ .
[5] الإنصاف ١/ ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، شرح المفصل ٨ / ٤٥ ، ١٠ / ٩٥ ، الهمع ٣/ ٢٢١ .
[6] دور الكلمة في اللّغة ٤٢ .

Scanned with CamScanner

و من هذه الأمراض ماكان مختصا باللّسان ؛ حيث " يثير تحوّلا صوتيّا، و انتقالا لمخارج الحروف ، حتى يتكوّن للصّيغة شكل جديد، يختلف عمّا كانت عليه من قبل ، و ليس السّبب في تلك الصّورة إلا عيوب المنطق ، و إصابة الجهاز الصّوتي بعلّة فيه "[2].

و من هذه العيوب اللّثغة و اللُّكْنة . أمّا اللّثغة؛ فهي :" تحويل حرف إلى غيره؛ لغير سبب لغويٍّ أو صرفيٍّ مع العجز عن إبانة الحرف الأصليّ ؛ لغير سبب من العُجمة "[3].و من ذلك: قولهم في ظاهرة الوتم ؛ و هي :تحويل السّين تاء ؛ كما في: النّاس و النّات: إنّها نتيجة من نتائج هذه الآفة، ثمّ إنّ مثل هذه الآفة تعمّم بفعل التّقليد ؛ إذ من الممكن " أن تتّسم شخصيّة عظيمة باللّثغة، فتقتدي بها الطّبقات الأخرى المحيطة بها، و تقلّدها أوّلا في تلك اللّثغة ، و بعد مرور زمن يصبح هذا الانحراف، أو تلك اللّثغة مقبولة ... و النّاس مجبولون على تقليد العظماء ، و ما يجري على اللُّغة- في هذا المنحى- يجري على الأمور الأخرى ؛كالأزياء، و العادات "[4].

و قد تنتقل هذه الآفة عن طريق الوراثة من الآباء إلى الأبناء ،ثم تشيع في الأجيال حتى تكون صوابا فيما بعد [5].

و قرّر د. أحمد علم الدّين الجندي أنّ القدماء- من علماء العربيّة -كانوا على ذُكر من ذلك ؛ إذ صدرت لهم إشارات تدلُّ على ذلك في تضاعيف كتبهم [6]؛ و من ذلك: أنّ الخليل حار في :الدُّعاق و الزُّعاق ؛ وهو الدّاء القاتل فقال : " سمعناه فلا ندري ألُغة هي أم لُثغة ؟"[7]، و كذلك الأصمعي ؛ إذ قال : " العاذر لُغة في العاذل أو لُثغة ، وهو :عرق يخرج منه دم الاستحاضة "[8].

[1] اللّهجات العربيّة في التّراث ١/ ٤١٣- ٤١٤ .
[2] السّابق
[3] من عيوب النُّطق اللّثغ بالراء بمكّة جامعة أمّ القرى ، ع ٥ ، ص ٧٤.
[4] اللّهجات العربيّة في التّراث ١ / ٣٥٧ .
[5] السّابق
[6] السّابق
[7] العين ١ / ١٤٨ .
[8]

و في اللّسان : " مرست التّمر و غيره في الماء إذا انقعته ، و مرثته بيدك ، و مرس الصّبي أصبعه يمرسه : لغة في مرثه أو لُثغة "[1].

أمّا اللُّكْنة؛ فهي: عُجمة في اللّسان و عِيٌّ ، و لَكِنَ لَكَنا و لُكُنونَة ، و الأَلْكَن: الذي لا يقيم العربيّة ؛ لما في لسانه من عُجمة[2]. يقول المبرّد : " اللُّكْنة أن تعرض على الكلام اللُّغة الأعجميّة "[3]؛ لأنّ اللّسان تجذبه العادة الأولى إلى المخرج الأوّل .

و هذا يكشف ما للُّغة الأولى؛ التي نشأ عليها الفرد من أثر في استصحاب خصائصها اللُّغويّة في تَعَلُّم لُغة أخرى .

و من صورها: نطق الخاء هاء ؛ و من ذلك: قول صهيب : إنك لهائن يريد: لخائن [4]، و منها ـ أيضا ـ :نطق السّين شينا، و الطّاء تاء ، و منه: ما أنشده زياد الأعجم :

فتى زاده السُّلطانُ في الودِّ رفعة إذا غَيَّر السُّلطانُ كلَّ خليل

فكان يقول : فتى زاده الشُّلتان [5].

و منه: لُكْنة سُحيم ؛ إذ قال : ما سعرت يريد بها: ما شعرت [6]. و مما ورد عنه في ذلك قوله:

و لو كنتُ وردا لونه لَعَشِقْتِني و لكنّ ربّي سانني بِسَوَاديا [7].

يقول د. أحمد علم الدّين الجندي : " قد يرجع التّبادل بين السّين و الشّين لا إلى العلاقة بينهما ... بقدر ما يرجع إلى أمراض الكلام "[8].

[1] لسان العرب ٦ / ٢١٥ .
[2] السّابق ١٣ / ٣٩٠ .
[3] الكامل ١ /٢٢١
[4] البيان و التّبيين ١/ ٧٢ .
[5] السّابق ١/ ٧١ .
[6] السّابق ١/ ٧٢ .
[7] سر صناعة الإعراب ١/ ٢٠٣ ، اللّسان ٩/ ٢٠٧ ، وورد في ديوانه :
فلو كنت وردا لونه لعشقتني و لكنّ ربي شاني بسواديا
ينظر ديوان سُحيم ٢٦ .
[8] اللّهجات العربيّة في التّراث ٢/ ٤٥٦

Scanned with CamScanner

و عدت واضعه التصحيف من عوامل التطور اللغوي ، يقول د. إبراهيم أنيس : " لا يبعد أنّ بعض تلك الكلمات؛ التي أُقحمت في مسائل الإبدال ليست في الحقيقة إلا وليدة التّصحيف، أو التّحريف "[1] ، مقرّرا أنّ ذلك لم يكن مقصورا على الألفاظ اللّغوية ، بل تجاوزها إلى بعض القراءات ، و أنّ الحكم بصفة قاطعة على وقوع التّصحيف في كلمة بعينها ليس بالأمر اليسير، و مع ذلك فهو يرى أنّه ليس من التّجنّي أن نرجّح أنّ بعض تلك الكلمات؛ التي وردت في باب الإبدال لاتمتُّ للإبدال بأيّة صلة ؛بل هي وليدة التّصحيف .[2]

في حين رجع ذلك الشّدياق إلى أنّ أهل اللّغة لم يعنوا بتأليف الكلام[3] .

و ذهب د. صبحي الصّالح إلى أنّ تصحيف السّمع أكثر ما يقع في الأحرف المتقاربة مخرجا أو صفة ، و أنّ هذا النّوع أكثر شيوعا و انتشارا؛ للتّقارب بين الأصوات،[4] في حين أنّ هذا التّصحيف عند الشّدياق لم يقتصر على النُّطق ،بل تعدّاه إلى الخطّ[5] .

و رجع د. عيد محمّد الطّيّب ظاهرة الوتم إلى هذا العيب ؛ إذ رأى أنّ السّين قد تُسمع من بُعْد و كأنّها الثّاء ؛ لما في كليهما من الهمس ، و يتحقّق ذلك حين يكون الصّفير في السّين ضعيفا[6] .

و بعد : فلعلّ ما سلف بيانه كان تأثُّرا بالمدرسة الانجليزية؛ التي كان الأستاذان سيس و سويت الانجليزيان ، و كذلك جيرسن الدّنمركي من أظهر ممثّليها؛ و ذهبت هذه المدرسة إلى أنّ الظّواهر جميعها- بما في ذلك التّطوّرات الصّوتيّة- ترجع إلى أمور يقوم بها الأفراد،و تنتشر عن طريق التّقليد و المحاكاة . و هي- في هذا - متأثّرة بنظريّة العلّامة الفرنسي جبرائيل تارد؛ إذ ذهب إلى أنّ الظّواهر الاجتماعيّة جميعها فرديّة المنشأ، و تصبح اجتماعيّة عن طريق التّقليد[7] .

---

[1] من أسرار اللّغة ٨٤ .
[2] السّابق ٨٤ – ٨٥ .
[3] المحاسوس على القاموس ١٨٤ .
[4] دراسات في فقه اللّغة ٢٣٧- ٢٣٨ .
[5] المحاسوس على القاموس ١٨٢ .
[6] لهجات العرب و امتدادها إلى العصر الحاضر ١٦٢ ، اللّغة العربيّة في مواجهة العولمة ١٩٨ .
[7] علم اللّغة (وافي) ٥٨ .

و قد رأى د. علي عبد الواحد وافي فساد ذلك ؛ إذ قال : " فليس بصحيح ما ذهب إليه بعض العلماء من أنّ تطوُّر الأصوات يحدث نتيجةً لأعمال فرديّة اختياريّة، تنتشر عن طريق التّقليد و المحاكاة "[1] . و فرّق بين نوعين من الأخطاء : أخطاء خاصّة ، و أخرى عامّة ؛ أمّا الخاصّة؛ فهي: أخطاء مقصورة على بعض الأفراد؛ نتجت عن ضعف السّمع، أو اختلال أجهزته، و ما إلى ذلك ، و ليس لمثل هذه الأخطاء شأن كبير في التّطوُّر اللّغوي ؛ لأنّها مقصورة على أصحابها؛ تبقى معهم، و تموت بموتهم .

و أمّا العامّة؛ فهي: أخطاء يشترك فيها جميع أفراد الطّبقة الواحدة ، و تمتاز بها لغتهم عن لغة الطّبقة السّابقة لهم ؛كالأخطاء السّمعيّة النّاشئة عن ضعف بعض الأصوات؛ حيث يحيط بالصّوت بعض المؤثرات؛ التي تعمل على ضعفه بالتّدريج، فيتضاءل جرسه حتى يصل إلى درجة لا يكاد يتبيّنه السّمع، فحينئذ يكون عرضة للسّقوط ، ثمّ إنّ بعض الصّغار في هذا العصر لا يكاد يتبيّنه في نطق الكبار ؛ فينطقون بالكلمة مجرّدة منه ، و ظهر هذا العامل بشكل واضح في الأصوات الواقعة أواخر الكلمات ؛ كعلامة الإعراب في اللّغة العربيّة .[2]

و ذهب أولمان إلى أنّ التّغيُّرات اللّغوية مهما اختلفت في طبيعتها و سرعتها، غير أنّها تسير وفق قاعدة رئيسة ؛ و هي أنّها تقع- دائما- على مرحلتين : الأولى مرحلة التّغير نفسه أو الإبداع و التّجديد ، و هو عمل فرديٌّ، غير أنّه ليس مقصورا على فرد واحد؛ فقد يتصادف أن يتّفق أفراد كثيرون على التّغيير في وقت واحد ، و قد يحسّ عدد آخر من الجماعة اللّغوية المعيّنة بأنّ هذا الابتداع كان بأذهانهم ، و كان بمقدورهم أن يبدأوا به ، و رأى أنّ هذا القبول الاختياري، و هذا الاتّفاق الانبعاثي عاملان رئيسان في المرحلة الثّانية ؛ و هي مرحلة انتشار التّغيير ، فإذا ما سمع الشّيء المبتدع علق بالذّهن ، و ترتّب على ذلك استعمال الآخرين له، و من ثَمَّ ينفذ بالتّدريج إلى نظام اللّغة[3] .على أنّنا -كما يقول د. تمام حسان-لا نستطيع أن نقول عند أيّ حدٍّ معيّن بدأ هذا التّغيُّر ، ولا أن ننسبه إلى جماعة بعينها، و لا نستطيع –

---

[1] السّابق ٢٨٧ .
[2] علم اللّغة ٢٩٧ .
[3] دور الكلمة في اللّغة ١٥٣ – ١٥٤ .

Scanned with CamScanner

كذلك- أن نقرّر ما إذا كان تغيُّر ما قد بدأ فرديًا، ثمّ اتّسع مدى تطبيقه، و لا أن ننسبه إلى فرد معين .[1]

و رأى ج . فندريس أنّ الظّواهر اللّغوية ما هي إلا نتيجة لما أفرزته الأجيال في المجتمعات، و دعا إلى التّفرقة بين التّغيُّرات الفرديّة و التّغيُّرات الجماعيّة المشتركة؛ فقد يحدث أنّ بعضهم لديه نقص في بعض الأصوات؛ نتيجةً لاستعداد مرَضي ، و رأى أنّ هذا النّقص الفرديّ لا يعني غير الطّيب ، وعلى ذلك لا يمكن التّعويل على هذا المبدأ في دراسة الظّواهر اللّغوية؛ إذ يلحظ أنّ مثل هذه التّغيُّرات الصّوتيّة لم تنته إلى نتيجة يمكن تعميمها ، و غاية ما في الأمر هو الاستفادة منها في الإعلان عن نقاط الضّعف في النّظام اللّغوي.

و ذهب إلى أنّ الاعتقاد بأنّ كلّ تغيّر صوتي إنّما يصدر عن الفرد، ثم يعمّم أمر لا يمكن قبوله مطلقا ، و إن كان هذا الاعتقاد قد ساد شطرا طويلا من الزّمن ؛ ذلك أنّه ليس في وسع أيّ فرد أن يفرض على حيوانه نطقا تنوعه فطرتهم ، و لأجل أن يصير تغيّر ما قاعدة لمجموعة اجتماعيّة ، يجب أن يكون لدى كلّ أفراد هذه المجموعة ميل طبعيّ لتحقيقه من تلقاء أنفسهم ، مقرّرا أنّ سلطان المحاكاة ليس له أيّ تأثير ، فالنّطق الشّاذّ لا يجلب أتباعا لصاحبه؛ بل يجلب له السُّخرية .[2]

و لو حصل أنْ كان لبعض التّغيّرات الفرديّة أثر ما فهي تغيُّرات طارئة و مؤقّتة ، و ليس لها من تأثير في النُّظم الصّوتيّة للّغة ، ذلك أنّنا -كما يقول د. تمام حسّان- نتلعثم أحيانا؛ فننطق بالكلمات على غير وجهها ، و أنّنا نفاصح أحيانا؛ فزيد في تفخيم المفخّم ،وترقيق المرقق ، وقد يدفعنا مزاج خاص، أو موقف اجتماعي خاصّ إلى أن نخرج لساننا في الثّاء حين الكلام باللّهجة العاميّة؛ التي لا تشتمل بين حروفها على الثّاء ، أو لا نخرج اللّسان في نطق الثاء حين النُّطق باللّغة الفصحى ، و هذه التّغيرات طارئة و مؤقّتة ، و غير مؤثّرة في النُّظم الصّوتيّة للّغة ، و هي من باب الغلط؛ الذي يقابل بالنّقد الصّارم .[3] ذلك أنّ اللّغة بنت المجتمع، فيه تعيش، و تكتسب وجودها من الاحتشاد الاجتماعي ، و من هنا جاء تعريف ابن جنّي لها بقوله :

---

[1] اللّغة بين المعياريّة و الوصفيّة ٩٦ .
[2] اللّغة ٦٩ ــ ٧٠ .
[3] اللّغة بين المعياريّة و الوصفيّة ٩٦ .

" أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم "[1]. فتحده يقول : "كلّ قوم " ، و لم يقل: كلّ إنسان ؛ لأنّ اللّغة بنت المجتمع فيه تعيش و ينموّه و ازدهاره تتطوّر[2] .

يقول ج. فندريس : " في أحضان المجتمع تكوّنت اللّغة . وجدت اللّغة يوم أحسّ النّاس بالحاجة إلى التّفاهم فيما بينهم ... و صارت من أقوى العُرى؛ التي تربط المجتمعات ، و قد دانت بنشوئها إلى احتشاد اجتماعي "[3].

فهي ليست من الأمور؛ التي يصنعها فرد معيّن أو أفراد معيّنون ؛ و إنّما تخلقها طبيعة الاجتماع ، و تنبعث عن الحياة الجمعيّة ، و أنّ أيّ تغيُّر يعتريها لا يكون وفقا لإرادة الأفراد .[4]

و مهما يكن من أمر هذه التّغيُّرات، فإنّ الأطفال ليس لهم تأثير فيها ؛ لأنّ الطفولة ليست سوى مرحلة تقليد لغوي ، و عندما يخطئ الطّفل في نطق بعض الكلمات ، فإنّ ذلك لا يعني بَدْأ التّطوُّر في أصوات اللّغة ؛ لأنّ طبيعة اللّغة كفيلة بتصحيح هذا الخطأ فيما بعد ، و يتمّ ذلك عندما يكتمل نضج الأعضاء الصّوتيّة لدى الطّفل .[5]

وهذه الأخطاء تُعرف بالنّتاج السّنّي ؛ و تعني: أنّ هناك صيغا لغويّة؛ لا يستخدمها سوى الأطفال في مرحلة الأقران ، و تتناقل الأجيال من الأطفال هذه الصّيغ من دون أن يستخدمها البالغون مطلقا ، وأنّ هؤلاء الأطفال سيهجرون هذه الخصائص في آخر الأمر .[6] و حدّد علماء النّفس اللّغوي المسار الزّمني الاستمراري لمرحلة التّقليد و المحاكاة -عند الأطفال- ما بين نصف سنة إلى ثلاث سنوات ونصف [7].و من ثمّ ما روي من أنّ بعض الأطفال يدل حرفا مكان آخر ، أو يقدّم حرفا على آخر لا يمكن أن يندرج تحت قواعد أعمّ ، و مرجّح أنّ هذه التّغيُّرات نتيجة اضطراب الطّفل؛ لعدم سيطرته على النّظام اللّغوي ؛ لأنّ البعا السّمعي لا يتناظر- أحيانا- مع البعد النُّطقي؛ ممّا يجعل الطّفل مضطربا بينهما . على أنّ ها

---

[1] الخصائص ١/ ٣٣ .
[2] فقه اللّغة في الكتب العربيّة ٧٢ .
[3] اللّغة ٣٥ .
[4] اللّغة و المجتمع ٦ .
[5] اللّغة بين الفرد و المجتمع ٣٨ .
[6] علم اللّغة الاجتماعي ٣٢ .
[7] الأصوات اللّغوية ٣١٧ .

Scanned with CamScanner

و يتبع ما سبق الأقيسة الخاطئة عند الأطفال ؛ ذلك أنه قد يخطئ في نطق بعض الكلمات قياسا على أخرى غير أنه يمر بمرحلة التصحيح ؛و ذلك لمواجهته للنموذج اللُغوي؛ الذي يتحدَّث به الكبار؛ و الذي يلتزم- من خلاله - بنطق الحالات الاستثنائية نطقا سليما ، فالطفل -عند اقترابه من مستوى القواعد- ينخرط في معرفة الأمور الصَّرفية و النَّحوية؛ المتعلّقة بلغة الأم ،و ذلك من خلال عمليتين : تعلُّم و استخدام الكلام في الحديث ، و استخدام المفردات من خلال التَّشابه ، فالتراكيب اللُّغوية؛ التي تعلّمها يمكن أن تتعدد عن طريق إبدال عنصر بآخر ، غير أنّها تستقرُّ لدى الطِّفل بفضل عمليَّات المراجعة العاديَّة، بمتابعة، و تصحيح الكبار ، وكذلك التَّجارب و التَّمرينات؛ التي يقوم بها الطِّفل نفسه ، و يصحح الطِّفل الحالات الخاطئة الواحدة تلو الأخرى ، وفي هذه الحالة قد تسمع تراكيب ينطقها الطِّفل قياسا على التَّشابه ، غير أنّه يرفضها على التَّوازن ؛ لأنّه لا يجد لها معنى عند الكبار [1].

في حين أنَّ القياس الخاطئ أمر مقرٌّ في اللُّغة؛ و هو ما عبَّر عنه سيبويه بالغلط ؛ حيث قال : " و اعلم أنَّ أناسا من العرب يغلطون ؛ فيقولون : إنَّهم أجمعون ذاهبون، و إنَّك و زيد ذاهبان" [2].

و علَّل ابن جنِّي لهذا الغلط بقوله : " إنَّما يجوز هذا الغلط عندهم؛ لما يستهويهم من الشَّبه ؛ لأنَّهم ليست لهم قياسات يستعصمون بها ، و إنَّما يخلدون إلى طبائعهم؛ فمن أجل ذلك قرأ الحسن البصريّ ــ رحمة الله عليه ــ : (وَ مَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطون)[3] ؛ لأنّه توهَّم أنّه جمع تصحيح ؛ نحو: الزَّيدون ، و ليس منه "[4].

وفُسِّر الغلط -هنا- بالتَّوهُّم ؛ يقول ابن هشام : " و مراده بالغلط ما عبر عنه غيره بالتَّوهُّم ...و توهَّم ابن مالك أنّه أراد بالغلط الخطأ، فاعترض عليه بأنّا متى جوَّزنا ذلك عليهم زالت الثِّقة بكلامهم، وامتنع أن نثبت شيئا نادرا ؛ لإمكان أن يقال في كلّ نادر: إنَّ قائله غلط "[5].

---

[1] التربية اللُّغوية للطِّفل ٥٣ .

[2] الكتاب ٢/١٥٥ .

[3] الشُّعراء ٢١٠ .و ينظر القراءة في مختصر في شواذ القرآن ١٠٩ حيث قرأ بها الأعمش أيضا .

[4] المنصف ١/ ٣١١ ، وينظر سر صناعة الإعراب ١/ ٣٣٠ ، الخصائص ٣/ ٢٧٦- ٢٨٥ .

[5] مغني اللبيب ٢/ ٤٧٨ .

Scanned with CamScanner

وجعل ابن فارس ذلك من سنن العرب؛ حيث قال : " من سنن العرب التَّوهُّم و الإبهام ، و هو أن يتوهَّم أحدهم شيئا، ثم يجعل ذلك كالحقّ "[1]. في حين يذهب السَّمين الحلبيُّ إلى أنّ المراد بالغلط هنا مخالفة القياس ؛ حيث " إنهم غالطون بالنِّسبة إلى عامَّة العرب "[2]. لذلك حُكم عليه بالشُّذوذ ، يقول ابن جنّي : " هذا الغلط نظائر في كلامهم ، فإذا جاءك فاعرفه؛ لتسلّمه كما سمعته ، و لا تقس عليه "[3].و يقول أبو حيان : " العطف على التَّوهُّم لا ينقاس ، فلا يحمل عليه القرآن ما وجدت عنه مندوحة "[4]. و كذلك عدَّه ابن الأنباري " من الشَّاذ الذي لا يُعتدُّ به؛ لقلّته و شذوذه "[5].

و ذهب الأستاذ ماجد عمر إلى أنّ الأولى في ذلك حمل كلام سيبويه على ظاهره ؛ و هو تخطئة هذه اللُّغة ، مقرّرا أنّ رأي سيبويه- هنا- مردود عليه ؛ لأنها لم تصدر من فرد واحد ، قد يجري الخطأ على لسانه ، و إنّما من جماعة؛ يستحيل أن يتفقوا جميعا على الغلط ، على أن يحتفظ لسيبويه بالفضل في نقل هذه اللُّغة .[6]في حين يعترض د . محمَّد عبد القادر هنادي على مسألة تغليط العربيّ ؛ معلّلا ذلك بأنّ " العربيّ سيِّد لغته ، فكيف يُغَلَّط في كلامه ؟و إذا كنَّا نخطِّئ العربي الفصيح فممَّن نأخذ اللُّغة إذا ؟ "[7].كما اعترض – كذلك – على وصف المنقول عن العرب بأنّه حادَ عن طريق التَّوهُّم[8] .

و مهما يكن من شيء، فإنّ الباء على التَّوهُّم يُعدُّ من فقه اللُّغة ؛ و من ذلك: ما حدث من قصَّة سماع المبرِّد لعُمارة بن عقيل بن بلال بن جرير حين قرأ : (و لا اللَّيلُ سابقُ النَّهارَ)[9] فسأله المبرِّد : ماذا أردت ؟ قال : أردت سابقُ النهارَ ، فقال المبرِّد : فهلّا قلته ، فقال : لو قلته لكان أوزن ؛ أي: أقوى و أعرب .[10]

---

[1] الصَّاحبي ٣٢٧ ، و بحر الزمر ١/ ٣٣٦ .
[2] الدر المصون ٤/ ٣٥٨ .
[3] المنصف ١/ ٣١١ ، و بحر سر صناعة الإعراب ١/ ٣٣٠ .
[4] البحر المحيط ٤/ ٥١٥ ، بحر ٥/ ٢٤٤ ، والخزانة ١/ ١٢٠ .
[5] الإنصاف ١/ ٣٩٨ .
[6] اللغات في الكتاب لسيبويه للسنوي الهندي ٢٢١ .
[7] ظاهرة التأويل في إعراب القرآن الكريم ٨٨ .
[8] الشَّاهد
[9] يس ٤٠ و بحر القراءة في الحضر في شواذ القرآن من كتاب البديع لابن خالويه ١٢٦ .
[10] الكامل ١/ ٣٢٨ ، الخصائص ١/ ٣٢٢ معجم الأدباء ٤/ ١٥٩٦ .

علّق على هذه الحكاية ياقوت الحمويُّ ، فقال :" ففي هذه الحكاية من فقه اللُّغة ثلاثة أشياء :

أحدها : أنّهم قد يراعون من معانيهم ما تنسبه إليهم، و تحمله عليهم .

الثّاني : أنّهم قد ينطقون بالشَّيء، و في أنفسهم غيره ؛ ألا ترى أنّه لمّا نصَّ أبو العبَّاس عليه ، و استوضح ما عنده ، قال : أردت كذا ؛ و هو خلاف ما لفظ به .

الثّالث : أنّهم قد ينطقون بالشَّيء، و غيره أقوى منه؛ استلانة و تخفيفا؛ ألا تراه كيف قال : لو قلته لكان أوزن ؛ أي: أقوى و أعرب ."[1]

و من ثَمَّ كان التَّوهُّم " وسيلة مهمَّة من وسائل تخريج الكلام؛ إذا جاء على غير ما يقتضيه قياسه "[2].

و فرّق د/ إبراهيم أنيس بين قياس القدماء و قياسنا ؛ إذ رأى أنّ عملهم قد تقدَّم به الزَّمن ، و أصبح معترفا به مدوَّنا في تضاعيف كتبهم، في حين يُعدُّ قياسنا الخاطئ قياسا يأباه اللُّغويون و يعدُّونه لحنا [3].

و لعلّ السَّبب في ذلك هو أنّ الفصحى لها ظرف خاصٌّ ؛ لم يتوافر لغيرها من لغات العالم ؛ ممَّا يجعلنا نرفض بعض ما ينادي به بعض الغافلين- عن حسن نيَّة أو سوء نيَّة أحيانا- من ترك الحبل على الغارب للعربيَّة؛ لتفاعل مع العاميَّات؛ تأخذ منها، و تعطي ، كما يحدث في اللُّغات جميعها ، و هذا الظَّرف هو كونها مرتبطة بالقرآن الكريم ، و دُوِّن بها التُّراث العربيُّ الضَّخم ، و لو تُرك الأمر على عواهنه؛ لأمست الفصحى لغة أثريَّة؛ كاللاتينية ، و لسادت اللَّهجات العربيَّة المختلفة ، و ازدادت على الزَّمان بعدا عن الأصل؛ الذي انحدرت منه [4].

و هذا ما ذهب إليه د. حسام سعيد النُّعيمي حين ذكر أنّ التَّطوُّر؛ الذي دخل أصوات العربيَّة في لهجاتها المحلية أمر طبعي في اللُّغات ، و كان يمكن أن يكون كذلك في لغة الأدب الفصيحة لولا ما خصت به من ارتباط بكتاب الله- تعالى - ثمّ بخلاصة تجارب أجيال متعاقبة بما يزيد على خمسة عشر قرنا من الزَّمان ؛ لتبقى اللُّغة رابطة متينة بين أبناء هذه الأمَّة[5] .

---

[1] معجم الأدباء ٤/ ١٥٩٦ .
[2] التَّوهُّم دراسة في كتاب سيبويه ، راشد أحمد جراوي ، المجلة العربيَّة للعلوم الإنسانية ، ع ٦٦ ، السَّنة ١٧، عام ١٩٩٩م ، ص ١٠٧ .
[3] من أسرار اللُّغة ٤٤
[4] التَّطوُّر اللُّغوي ١٢-١٣.
[5] أصوات اللُّغة واقعها و مستقبلها ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ج ٢-٣ ، مج ٣٨ ، ص٣٠٤ .

Scanned with CamScanner

وقرّر د. إبراهيم أنيس أنّ القياس الخاطئ سلاح ذو حدين ؛ فهو من ناحية يعمل على اطّراد الأمور اللّغوية و انسجامها ، و من ناحية أخرى يبعد بعض الكلمات في صيغتها، أو مدلولها عن المألوف الشّائع .[1]

وليس المقصود بالقياس الخاطئ، أو بناء اللّغة على التّوهُّم الخطأ ؛ لأنّ " الخطأ في غاية النّدرة ، اكتفى العلماء فيها بالاعتماد على الكتب المشهورة المتداولة ؛ فإنّ شهرتها، و تداولها يمنع من ذلك مع ضعف الدّاعية له "[2] ؛ و ما ذلكم إلا لأنّ المجتمع يقوم بإصلاح الأخطاء؛ التي تندُّ عن أحد الألسنة ، يقول ابن جنّي : " حدّثني المتنبي شاعرنا ــ و ما عرفته إلا صادقا ــ قال : كنت- عند منصرفي من مصر- في جماعة من العرب ، و أحدهم يتحدّث؛ فذكر في كلامه فلاة واسعة ، فقال : يجور فيها الطّرف ، قال : و آخر منهم يلقّنه سرًّا من الجماعة بينه و بينه ، فيقول له : يحار بحار ، أفلا ترى إلى هداية بعضهم لبعض ، و تنبيهه إيّاه على الصّواب ."[3]

و ناقش المسألة الأستاذ محمد شوقي أمين في بحثه الموسوم بـ (تحقيق معنى بناء اللّغة على التّوهُّم) إذ فرّق بين التّوهُّم و الوهم ؛ فمعنى التّوهُّم: تخيّل الشّيء، و تمثّله، سواء أكان في الوجود أم لم يكن ، على أنّ الخطأ، أو الغفلة، أو السّهو، و كلّ ما يتّصل بذلك في مادة (وهم) وشتّان مابين الوهم و التّوهُّم .[4]

و كذلك فعل د. سيّد رزق الطّويل؛ الذي رأى أنّ " الخطأ في لسان العرب له معنًى يختلف عن معنى التّوهُّم ؛ فالخطأ مجانبة الصّواب و البعد عنه ، و التّوهُّم: حالة نفسيّة يتصوّر الإنسان معها تصوُّرات، قد تكون صحيحة ، و قد تكون فاسدة ، فإذا قلنا : إنّ فلانا يقصد بالخطأ التّوهُّم تكون حيث على اللّغة جناية بالغة ، و فقدت الألفاظ خصائصها في الدّلالة المحدّدة "[5].

[1] من أسرار اللّغة ٤٤ .
[2] المزهر ١/ ١٢٠
[3] الخصائص ١/ ٢٣٩ ، و ينظر ٢/ ٢٧ .
[4] تحقيق معنى بناء اللّغة على التّوهُّم و على مراعاة الوهم فيه ، مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بدمشق ، ج ٢ ، مج ٥٢ ، ص ٣٦٢ ــ ٣٦٣ .
[5] ظاهرة التّوهُّم في الدّراسات اللّغويّة و النّحويّة ، مجلّة معهد اللّغة العربيّة ، جامعة أم القرى ، العدد ١ ، ص ٩٥ ــ ٩٦ .

أمّا ما ورد عن الفصل الخاطئ ،و أنّ بعض الأدوات تلتصق بالكلمات المجاورة التصاقا شديدا، يظن السّامع معه أنّ الأداة مع ما دخلت عليه كلمة واحدة، و من ثمّ تستعمل بشكلها الجديد، فأمر لا تركن إليه النّفس ؛ لأنّ الأصل في الكلام عدم التّركيب ؛ " و العدول عن الأصل من غير دليل لا وجه له "[1] .

و علّق ابن يعيش على مذهب الفرّاء في (منذ) بقوله : " و هذه دعاوى لا دليل عليها ، و الأصل عدم التّركيب "[2]. و ذكر في شرح الملوكي أنّ " هذا لا يُطّلع عليه إلا بنصّ من الواضع "[3]؛أي: أنّنا بحاجة لمعرفة النّشأة الأولى؛ التي كانت عليها اللّغة؛ لمعرفة مدى صحة مثل هذا القول ، و هذا أمر متعذّر .

يقول باريو باي : " هناك السّؤال الحائر؛ الذي لا يمكن الإجابة عنه ، و هو ما يتعلّق بأصل الكلام ، و هل كانت اللّغات أساسا تحتوي على كلمات منفصلة (مورفيمات حرة) ثمّ انضمت مؤخرا بعضها إلى بعض مركبة كلمات أطول عن طريق المورفيمات المتّصلة، ثمّ بمرور الزّمن تُوسيت هذه الوحدات المستقلّة ، و نُظر إلى الكلمة على أنّها بسيطة؟ "[4].

و ما ذهب إليه د . رمضان عبد التّوّاب من التّدليل على ذلك بما حدث لابنته -و هي صغيرة- أمر لا يقبل ؛ لعدم حجيّة المصدر الذي عوّل عليه .

أمّا عن واقعة اللّثغة، فقد عرف العرب هذه الآفة، و رصدوها في تضاعيف كتبهم ، بل عدُّوها من عيوب البيان ؛ لأنّ " فقد أيّ عضوٍ أو إصابته بأيّ صورة من صور النّقص ، لابدّ أن يؤدي إلى فقدٍ أو نقص مقابل في البناء الكلاميّ و الأدائيّ ، و يمنع من الوصول إلى الكمال و الجمال المنشود "[5]. و هذا يعني :أنّ في لغة الألثغ صوتا واحدا يؤدّي وظيفتين، إحداهما بالأصالة عن نفسه ، و ثانيهما بالنّيابة عن الصّوت؛ الذي عجز عنه .[6]

و لخطورة هذه الآفة " طلّق أبو رمادة امرأته حين وجدها لثغاء، وخاف أن تجيئه بولد ألثغ، فقال :

[1] الإنصاف ١/ ١٥٠ .
[2] شرح المفصّل ١٠/ ٩٥ .
[3] ٤٢٥ .
[4] أسس علم اللّغة ١٥٣ .
[5] الملامح الأدائيّة ٨٥ .
[6] أشتات مجتمعات ٩٥ .

Scanned with CamScanner

ومعذرة إلى الرحمن مني ... وتسروا العجزي والترحاحي
فمي كما أفاء السفي مسرو ... وأغمده كل عميق لاقتراح
وأشهد أن وعد الله حق ... ودار الخلد مثوى كل راح
وأنك كنت من جند تعاتوا ... فنادى الحين منشور الجحاجح
وأنك إن دعي الداعي مجيب ... حلى القصد مسورون السراح
لبهمي الفساد ما حفت فيا ... وما مهدت فيها من فجاج
بألف من عصارات لمكسر ... أبي الطبع وضاء الزواج
توالي مثل حسات بعقد ... تداكي سن (عاج) طي (ساج)
عبالك في بقاع الأرض شتى ... فأدن في مسامعهم وناج
أنسا منك نور الصبح حيا ... وها فارقتنا والليل داج
فهل من ناصح فيا أمين ... يقوم من تمطى في اعوجاج
(أعد العال) والأقدار حتم ... ودنيانا حداج في حداج
إذا أعياك من موفور حزن ... سل (العقاد) أو أشياع (ناجي)
ليهنك رابطة (الأدب المعي) ... وحملك بعض ما حمل (الخفاجي)
فحالد عن قوافينا وحارب ... وقم بالساح وازأر في هياج
بر الأعداء منك كما أراهم ... يسوم الروع من تحت العجاج
سألتك حين حم الموت هلا ... يساوي مأتم عرس الزواج
ووجه شع في الآفاق نورا ... وحوها حد كالحة السماح
هل العلماء بعد الموت ماتوا ... أبادر ... لا.. وأصرخ باحتجاجي
وما جدوى صراخي دون شعر ... يواسي الجرح يسعى في علاجي
يقول الناس يشفي الهم شعر ... فزاد الشعر همي واختلاجي
هب الأشعار تغني بعض شيء ... فقل لي من مدحت ومن أهاجي ؟!

قصيدة : (في وداع الحجاجي) رثاء الدكتور / محمد عبد المنعم خفاجي - تغمده الله برحمته (رحمه الله) الأربعاء ٢٠٠٦/٣/٨م عن عمر يناهز أربعة وتسعين عاما، وخلف (١٠٠٠) مؤلف بينها (١٨) ديوانا شعريا وتلاميذه على امتداد شرق الأرض وغربها أيضا.

حجد : يابس لا خير فيه — قن : بيت الدجاج — حاجي : حاجتي
غاجي : ولعي بالبكاء — عد العال: الشاعر محمد على عبد العال (رئيس رابطة الأدب الحديث) — السماح : القمح

Scanned with CamScanner

أسيوطي التأليف كيفما ... سرد اليراع خوارق المعتاد
ألفت للأجيال ألف مؤلف ... لم ينت حبر حطة الأسداد
يتعجب الإنسان فاغر فاه ... آها وآها من مصانع حادي
إن تفتخر أهلا بذاك ومرحبا ... وكفى به شرفا شهود نقاد
من جاء بالأشعار حفلاً مرضعا ... كبرا فأبدع أروع الأنشاد
وأتيت بالإرشاد يملأ جهلنا ... علما بنهج وهدي خير عباد
حتى انتهى تاج الدعاة بصبعة ... مدح الرجال لسيد الإرشاد

الشرق يفخر بالتفوق قائلا ... أن حفاجي أبسط الأعداد
ويقول لعا للمنون وريبها ... عصفت بخطي مرائد الأولاد
أمسوا ضحايا حسرة من بعده ... ترمي بهم الأوهام في الآباد
يرجون فديته لدي رسل الفنى ... وأنا بخلص حشاشتي لأفادي
تكفي المنية للحلائق عبرة ... لولا اللجاجة للنفوس تنادى
حسب البرايا من أمورك رفعة ... مهما تأجج نار غيظ حساد
ولقد كفيت لأزهر ولمصره ... للعالمين برغم أنف أعادي
فاليوم تأبين بشأنك حافل ... وغدا ستحشر ألف خير الهادي

بمناسبة حفل التأبين لفريد القرن وأستاذ الجيل د. عبد المنعم خفاجي
بتاريخ ٢٠٠٦/٤/٢٦
في كلية اللغة العربية ـــ جامعة الأزهر الشريف ـــ قاعة حمروش
اللهم ارحمه واعف عنه

في وداع الخفاجي
في رثاء الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي

شعر : محمد فايد عثمان
عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية

إذا ما لصبح آذن بانبلاج ... فما جدوى اشتعالك بالسراج
مطلّ الشمس أزعج جحد ليل ... كما انشعبت أوان من زجاج
فهيا نحو دفق النور هيا ... واقبل نحو موفور الخراج
فما يجديك إن أغمضت عينا ... ولا ما أنت تحكم من رتاج
أنشرب من معين الماء عذبا ... وتشرب أنت من ملح أجاج
وتخنع للتي جمعت رفاقا ... وتدفعهم إلى قن الدجاج
وترضي أن تساق بغير عقل ... كما سيقت (أضاح) من نعاج
أنادي في ضمير الناس جهرا ... معاذ الله أصخب في لجاج
أغالب خاطرا يخفي أنيني ... وقد صدعت نعاتك يا (حفاجي)
خفاء الموت جلى كل شيء ... وما في الموت شيء من أحاجي
وما ينجيك عند الموت حرص ... ولا ما رحت تبني من سياج
بكيت وقد علمت الموت حق ... وما حي أمام الموت ناج
وما هذي الدموع غداة حزني ... عليك بقاضيات بعض حاجي
ولكني رأيت الناس تبكي ... عليك فقلت أشهدهم لماجي
وما باريتهم بالدمع إلا ... ليعلم كم غدا رثا نساجي

Scanned with CamScanner

لثغاء تأتي بحَيْسِ أَلْثغ تَعِيْسُ في المَوْشيِّ و المُصَبَّغ "[1].

و هذا يدلُّ على عناية العرب باللُّغة، و اهتمامهم بالنَّاشئة ؛و ذلك من خلال اختيـــار الأم ؛ و هي القدوة الأولى بالنِّسبة للطِّفل .

و هذا واصل بن عطاء ؛و هو من كبار المعتزلة ، و كان خطيبا مفوَّها إلا أنَّه كان قبيح اللُّثغة شنيعها ؛ لذلك يتحبَّب النُّطق بالراء في كلامه، و يعمد إلى مرادف هذه الكلمات .[2]

و من ها" يتَّضح أنَّ اللُّثغة من العيوب الكلاميَّة؛ التي عرفها العرب ، و نزَّهوا كلامهم مـــن الوقوع فيها؛ بما لها من آثار لُغويَّة،و اجتماعيَّة ؛كحدوث الاضطراب، و التَّداخل في الألفاظ ، و المعاني ، و ما يترتَّب على ذلك من سوء الفهم، و صعوبة الإفهام، إلى جانب قبح الأداء ، و ما يترتب عليه من نفور السَّامع ، ووحشة المخاطبين "[3].

يقول الكنديُّ : " فمتى تغيَّرت آلة النُّطق ، و زالت عن الأماكن الواجبة للنُّطق، فسد لـــذلك المنطق ، و أتي بخلاف ما قصد له النَّاطق "[4].

و ما قيل من أنَّ القدماء فطنوا لدور اللُّثغة في التَّطوُّر اللُّغوي لدرجة جعلت الخليل و غيره من العلماء يحارون في عدد من الألفاظ ألثغة هي أم لُثغة ؟ رأي لا تركن إليه النَّفس ، و فهمي لما ورد عن الخليل و غيره من العلماء يخالف ذلك ؛ و هو أنَّ الخليل وجدها، فدوَّنها؛ حرصا على الاستقصاء في جمع المادة اللُّغوية ، و أثبت- مع ذلك- تشككه ؛ ليترك للخالفين إماطة اللِّثام عن مثل ذلك ، و هذا ما قام به السُّيوطيُّ في مزهره ؛ إذ أفرد لها بابا بعنوان : " معرفة ما ورد بوجهين بحيث إذا قرأه الألثغ لا يعاب " مقرِّرا أنَّها لغة، و إذا قرأ بها الألثغ،فإنَّه لا يعـــاب"[5].و وصف د. علي حسين البوَّاب عمل الخليل هذا بالأمانة و الدِّقـــة، معترضا على من اتَّهمـــه بالتَّصحيف و التَّحريف؛ حيث قال : " أهناك أمانة و دقة أكثر من ذلك ؟ أوَ بعد ذلك يُتَّهم هؤلاء الأئمة بالتَّصحيف، و يُرمون بالخطأ و التَّحريف؟! أيصحُّ أن نجري وراء الافتراضات ، فنزعم أنَّ الإبدال بين الراء و الغين ، أو بين الثاء و الذال ، أو بين اللام و الـــراء لـــيس إلا

[1] البيان و التبيين ١/ ٢٥ .
[2] البيان و التبيين ١/ ١٦ .
[3] اللامح الاجتماعي ٢٥٢ .
[4] الكندي في اللُّغة ، مجلة مجمع اللُّغة العربيَّة بدمشق ج ٣ ، مج ٦٠ ، ٥٢١ .
[5] المزهر ١/ ٥٥٦-٥٦٦ .

لثغات، أو من أخطاء الأطفال؛ الذين لا يجدون من يصلح لهم أخطاءهم، أو من أوهام السَّمع ،كما يحلو لعلمائنا المعاصرين أن يقولوا "[1].

و ذهب د . سليمان العايد إلى أنَّ ماكان من هذه الأمثلة و نحوها؛ مما نصَّ عليه العلماء ليس لثغا؛ بل تعاقب حروف يحفظ ما جاء منها ، و لا يقاس عليه؛ بمعنى: أنَّ من نطق غير ما جاء عن العرب في ذلك فقد قارف لثغا "[2].

و يرى د. عبد الغفَّار حامد هلال أنَّ في التَّعويل على مثل هذه الآفات شيئا من المبالغة ، و إن كان لهذه العلل أثر ما قد يتسبب في إبدال بعض الكلمات عند فئة من النَّاس ؛ ممن أصيبوا في سمعهم، أو نطقهم ، خرجت لهم هذه الآفة عن السَّلامة المفترضة .[3]

و من هنا يُردُّ على من قال : إنَّ الوتم نتج عن هذه الآفة . و مما يؤكد ذلك اشتمال بعـــض الكلمات على صوت السِّين في موضعين من الكلمة ؛ فيبدل في واحد منها ، و لا يبـــدل في الآخر ؛ من نحو ما رواه الأصمعيُّ من قولهم : الكرم من سُوسِـــه، و تُوسِـــه ؛ أي : مـــن خليقتـــه[4] .فلو كان لُثغة ؛ لأبدل السِّين تاء في الموضعين .

و من ذلك ما أنشده يعقوب :

قد زمَّلوا سلمى على تِكِّين و أوْلَعُوها بدم المسكين

أراد : على سِكِّين [5]،فأبدل السِّين تاء فيها، و لم يبدل في سلمى، و المسكين .

بل و صل الأمر إلى القراءات القرآنيَّة ؛ حيث قرئ قوله تعالى : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)[6] : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ التَّات)[7] .

أمَّا ما يتعلَّق بواقعة اللُّكْنَة، فقد قال القدماء- من علماء العربيَّة- قولهم في ذلك ، فهـــذا ابن جني -حين تعرض للُّكْنَة سُحيم- قال : " إنَّما قلب السِّين شينا؛ لسواده، و ضعف عبارته

[1] ظاهرة الإبدال اللُّغوي دراسة وصفيَّة تطبيقيَّة ١١٥ .
[2] من عيوب النُّطق اللثغ بالراء ٧٧
[3] اللَّهجات العربيَّة نشأة و تطوّرا ١٤٩ .
[4] الإبدال ١/ ١١٥ .
[5] اللِّسان ١٣ / ٢١١ .
[6] الناس ١.
[7] مختصر في شواذ القرآن ١٨٤.

Scanned with CamScanner

عن الشّين ، و ليس ذلك بلغة ؛ و إنّما هو كاللّثغ ."[1] و تبّه ابن عصفور لذلك؛ و أخرج هذا النّوع من التّعاقب من حيّز الإبدال ، و قال : " لم يبدل السّين من الشّين في عشقتني ، و لا في شانني ؛ بل كان له لثغ في الشّين ، فكان يتعذّر عليه النّطق بها حتى يجعلها سينا "[2].

و لأهمّية هذه الآفة حاءت عناية العلماء بها؛ إذ جُعلت بمنزلة اللّحن ؛ لأنّ هذا اللّون من التّعاقب فرديٌّ " يقع من بعض الأفراد ؛ بسبب عجزهم و قصورهم الذّاتي ، و أنّه ليس من ذلك النّوع من التعاقب؛ الذي يتبع فيه الفرد قومه، و أبناء قبيلته "[3]، و هو ما يُعنى بدراسته اللّغوي ، و توضع على أساسه القوانين اللّغويّة ، و من ثمّ فهو " لا يمثّل ظاهرة لغويّة يمكن درجها تحت موضوع اللّهجة القبليّة "[4]. و هذا اللّون من النّطق يبقى مع الفرد؛ من غير عدوى منه إلى محيطه الاجتماعي . و التّلبّس به لا يكون مقصودا أو اختياريّا ، كما أنّه – في الغالب – يسبب له احراجات شتّى ؛ تهون حينا و تصعب أحيانا .[5]

و هذا العيب يمنع أن يكون صاحبه عيّنة تؤخذ لغة[6].

أمّا عن واقعة التّصحيف ، و أثرها في التّطوّر اللّغوي ، فليس بوسع أحد أن ينكر التّصحيف في اللّغة ، أمّا أن يكون لهذا التّصحيف أثر في التّطوّر اللّغوي، فرأي جانبه الصّواب ؛ لأنّ التّصحيف و إن كان شائعا إلا أنّه يُعرّض صاحبه للذّم و الانتقاص .

و ينبغي التّنبيه إلى أنّ الاتّهام بالتّصحيف لم يبنَ على معرفة علميّة دقيقة في جميع الأحوال ؛ بل خضع للنّزعات الشّخصيّة البحتة ، ووجوده أمر طبعي ؛الضخامة التّراث العربي ،و صعوبة السّيطرة عليه عند جمعه ؛ نظرا لبدائية وسائل تناقله . و يمكن القول بأنّ كلّ المآخذ؛ التي سُجّلت على لغوي القرن الثّاني من هذا الوجه ، لا تشكّل شيئا له قيمته الكبيرة، إذا ما قورنت هذه الأخطاء بمحمل ما حفظوه لنا[7].

[1] سر صناعة الإعراب ١/ ٢١٤ .
[2] المنصف ١/ ٤١٠ .
[3] اللّثغات مخضرمات ٩٥ .
[4] عيوب اللّسان و التّهجمات اللغوية ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ج ٣ ، مج ٣٦ ، ص ٢٤١ .
[5] اللّحن في الأصوات العربية . مجلة آداب الرّافدين ، ع ١٤ ، مج ١٦ ، ص ٧٥ .
[6] علم اللّغة و فقه العربيّة ٤٦ .
[7] لغويو القرن الثّاني و ظاهرة التّصحيف ، مجلة آداب المستنصريّة ، العدد ٦ ص ١٣٧ .

و أفرد السّيوطيُّ لذلك بابا في مزهره بعنوان : " معرفة ما ورد بوجهين بحيث يؤمن فيه التّصحيف "[1] قال فيه : " هذا نوع مهمٌّ يجب الاعتناء به ؛ لأنّ به يدفع ادّعاء التّصحيف على أئمّة أجلاء "[2]. و ذكر عددا من الكلمات ؛ التي يُظنُّ أنّها من باب التّصحيف؛ من نحو :الدّثر و الدّثر : المال الكثير [3]،و من ذلك قولهم : تركت فلانا يحوس بني فلان ،و يحوسهم ،أي :يدوسهم ، و يطلب فيهم[4] ،و قولهم : الحفحفة بالحاء ، و الحفحفة بالخاء : صوت الضّبع.[5]

و ذكر قصّة وقعت لأبي عمرو مع يزيد بن مزيد ؛ حيث إنّ أبا عمرو أنشد يزيد بيتا من الشّعر فيه كلمة (عَدُوف) فقال : صحّفت يا أبا عمرو . قال : لم أصحّف ؛ لغتكم (عدوف) و لغة غيركم (عدوف) .[6]

و في هذا دليل على أنّ اختلاف لغات العرب قد لعب دورا بارزا في هذا .

و تجاوز الأمر لغة العرب إلى القراءات القرآنيّة ؛ و من ذلك قوله تعالى : (ولا تَجَسَّسُوا)[7] حيث قرأ الحسن ، و أبو رجاء ، و ابن سيرين بالحاء .[8]

و ناقش د. علي حسين البوّاب هذه المسألة قائلا : " لست أدفع ورود التّحريف في اللّغة، و لكنّي أقول : إنّ أكثر ما قيل إنّه كذلك، هو من اختلاف العلماء ، و سأنقل- هنا- بعض ألفاظ الإبدال اللّغوي؛ التي قيل : إنّ فيها تحريفا ، و أكثرها مما يمكن دفع التّهمة عنه "[9]. و نقل عددا من الألفاظ من غير معجم، مثبتا ورودها بالصّورتين ؛ من مثل: رعج و زعج؛ بمعنى: أقلق [10]، و أحم و أحم الأمر؛ بمعنى: حان وقته[11]، معلّقا على ذلك بأنّ أكثر

[1] المزهر ١/ ٥٣٧-٥٥٦ .
[2] المزهر ١/ ٥٣٧-٥٣٨ .
[3] المزهر ١/ ٥٣٨.
[4] المزهر ١/ ٥٤١ .
[5] المزهر ١/ ٥٤٣.
[6] المزهر ١/ ٥٣٧ .و العدوف : الأكل ، و هي بالذال لغة ربيعة . اللّسان (عدف) ٩/ ٢٣٥ .
[7] الحجرات ١٢.
[8] البحر ٨/ ١١٤ .
[9] ظاهرة الإبدال اللّغوي ١١٦ .
[10] القاموس المحيط (رعج ، و زعج) ١/ ١٩٧ .
[11] الصّحاح (حم) ٢/ ١٤٠١، و (حم) ٢/ ١٤١١ .

Scanned with CamScanner

العلماء تحريفا، أو خطأ؛ إنما هو ناتج عن [illegible] بعض العلماء غيرهم بالخطأ

تحريف [1].

محمّد يعقوب تركستاني أنّه يمكننا الاطمئنان إلى الظّواهر اللّغويّة مـا دام يُستشهد لها بالشّواهد ، و تُساق لها الشّواهد ، و الإبدال يُعَدُّ من أهمّ الظّواهر اللّغويّة؛ التي عُني بها اللّغويون من التّدوين ، ما كوّن بنية المعاجم الأولى [2]. في حين عدّه ابن فارس سنّة من سنن العرب في القول، وطريقة من طرائق الكلام عند العرب ؛حيث قال : " من سنن العرب إبدال الحروف، و إقامة بعضها مقام بعض ؛يقولون: مدحه و مدهه، ويقولون: فرس رفل و رفن،وهو كثير مشهور قد ألّف فيه العلماء "[3].

ثم إنّ أهل اللّغة لم يهملوا البحث عن أحوالها، و أحوال رواتها، جرحا و تعديلا ، و فحصوا كلّ ذلك و بيّنوه ، و من طالع كتب طبقات اللّغويين و النُّحاة و جد ذلك .[4]

ثم إنّنا لو تركنا لكلّ واقعة أن تنتشر ، و تأخذ حظّها من الذّيوع والانتشار؛ لانحطّ الكلام إلى دَرَك سمج ، و لفقدت اللّغة كثيرا من مقوّماتها ؛ يقول ابن جني : " لو كانت هذه اللّغة حَشْوا مَكِيلا، و حَشْوا مَهِيلا؛ لكثر خلافها، و تعادت أوصافها "[5].

[1] ظاهرة الإبدال اللّغوي ١١٩ .
[2] لغات طيء ١/ ١٣١ .
[3] المُزهر ١/ ٣٣٣ .
[4] المزهر ١/ ١٢٠ .
[5] الخصائص ١/ ٢٤٤ ، و ينظر ١/ ٢٣٨ .

الخاتمة :

لعلّ – بعد هذا التّطواف– يكون قد بَرَدَ في الكفّ أنّ الواقعة على اختلاف صورها لا يمكن أن يكون لها أثر في التّطوّر اللّغوي ؛ حيث تُعَدُّ خروجا على العرف اللّغوي نتيجة أخطاء فرديّة ، و هذه الأخطاء تبقى مع الأفراد ، و تموت بموتهم ، و القول بأثرها كان تأثراً بما ذهبت إليه المدرسة الإنجليزيّة ؛ التي كان الأستاذان سيس، و سويت الإنجليزيّان ، و كذلك جسبرسن الدّنمركي من أظهر ممثّليها ؛ حيث ذهبت هذه المدرسة إلى أنّ الظّواهر الاجتماعية فرديّة المنشأ ، و تعمّم في المجتمع بفعل التّقليد و المحاكاة ، و اللّغة تعدُّ إحدى هذه الظّواهر الاجتماعيّة . وهو أمر لا يمكن قبوله بحال ؛ حيث إنّ مثل هذا التّنوع لا يجلب لصاحبه أتباعا ؛ بل يجلب له السُّخرية. و من ثمّ فالتغيرات اللّغويّة لا تخضع لإرادة الأفراد ، و إنّما تخلقها طبيعة الاجتماع .

Scanned with CamScanner

قائمة المصادر و المراجع :

١. القرآن الكريم .

٢. الإبدال لأبي الطيّب عبد الواحد على اللّغوي الحلبي ، حقّقه و شرحه عزّ الدّين التّنوخي ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠ م .

٣. أسس علم اللّغة. تأليف ماريوباي ، ترجمة و تعليق د. أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ط٣، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧م .

٤. أشتات مجتمعات من بحوث في اللّغة العربيّة د. عبد محمّد الطيّب ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م .

٥. أصوات اللّغة العربيّة د. عبد الغفّار حامد هلال ، ط٢، ١٤٠٨هـ .

٦. أصوات اللّغة واقعها و مستقبلها . د. حسام سعيد النّعيمي ، مجلّة المجمع العلمي العراقي ، ج٢ـ٣ ، المجلد ٣٨ ، بغداد ، شوال ١٤٠٧هـ / حزيران ١٩٨٧ م.

٧. الأصوات اللّغويّة في لهجة أهل صمداء و صلتها بالعربيّة الفصحى.د. عبد الغفّار حامد هلال ، مجلّة كلّيّة اللّغة العربيّة بجامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة ، ع ٧ ، ١٣٩٧ هـ .

٨. الإنصاف في مسائل الخلاف بين النّحويين البصريين و الكوفيين ، كمال الدّين أبو البركات عبد الرّحمن بن محمّد بن أبي سعيد الأنباري (ت ٥٧٧هـ) ١٩٨٢م.

٩. البيان و التّبيين . أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق و شرح عبد السّلام هارون ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط٥ ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥ م.

١٠. تحقيق معنى بناء اللّغة على التّوهّم و نفي مزاعم الوهم عنه ، محمد شوقي أمين ، مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بدمشق ، ج٢، المجلد ٥٢ ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

١١. التّربية اللّغوية للطّفل . سرجيوسيي ، ترجمة فوزي عيسى ، و عبد الفتّاح حسن ، مراجعة و تقديم د . كامليا عبد الفتّاح ،دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٩١م .

١٢. التّطوّر اللّغوي التّاريخي . د. إبراهيم السّامرائي ، دار الأندلس ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٣م .

١٣. التّطوّر اللّغوي ، مظاهره و علله و قوانينه . د. رمضان عبد التّوّاب ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، و دار الرّفاعي بالرّياض ، ط١ ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣م .

١٤. التّوهّم دراسة في كتاب سيبويه، د. راشد أحمد حراري، المجلّة العربيّة للعلوم الإنسانيّة ، العدد٦٦ ،السّنة ١٧ ، ١٩٩٩م.

١٥. الجاسوس على القاموس . أحمد بن فارس الشّدياق ، دار صادر ، بيروت ، قسطنطينة ، ١٢٩٩م .

١٦. خزانة الأدب و لبّ لباب لسان العرب ، تأليف عبد القادر بن عمر البغدادي ، تحقيق و شرح عبد السّلام هارون ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط٣، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

١٧. الخصائص . تأليف أبي الفتح عثمان بن جنّي ، تحقيق محمّد علي النّجار ، عالم الكتب بيروت ، ط٣، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .

١٨. دراسات في فقه اللّغة . د. صبحي الصّالح ، دار العلم للملايين ، ط١١ ، ١٩٨٦ م .

١٩. الدّرّ المصون في علوم الكتاب المكنون . للسّمين الحلبي ، تحقيق د. أحمد محمّد الخرّاط ، دار القلم دمشق، ط١ .

٢٠. دور الكلمة في اللّغة ، ستيفن أولمان ، ترجمة د. كمال بشر ، مكتبة الشّباب .

٢١. ديوان سُحيم عبد بني الحسحاس ، تحقيق الأستاذ عبد العزيز الميمني ، الدّار القوميّة للطّباعة و النّشر ، القاهرة ، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م.

٢٢. رسالة الكندي في اللّثغة ، تحقيق محمّد حسّان الطّيّان ، مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بدمشق ، الجزء الثّالث ، المجلّد السّتّون ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٢٣. رؤية لغويّة جديدة للإبدال في الحروف الصّامتة . د عبد الغفّار حامد هلال ، جامعة الأزهر ، كلّيّة اللّغة العربيّة بالقاهرة ، ع ١٠ ،١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٢٤. سر صناعة الإعراب . أبو الفتح عثمان بن جنّي ، دراسة و تحقيق د. حسن هنداوي ، دار القلم ،دمشق ، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

Scanned with CamScanner

٢٥. شرح المفصل للشّيخ موفق الدّين يعيش علي بن يعيش المعروف بابن يعيش (ت ٦٤٣ هـ) عالم الكتب بيروت ، و مكتبة الخانجي بالقاهرة ،من دون تاريخ.

٢٦. شرح الملوكي في التّصريف ،لابن يعيش ، تحقيق د. فخر الدّين قباوة ، المكتبة العربيّة بحلب ، ط١، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣ م.

٢٧. الصاحبي : أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ) تحقيق السيّد أحمد صقر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي و شركاه .

٢٨. الصّحاح تاج اللّغة و صحاح العربيّة . لإسماعيل بن حمّاد الجوهري ، تحقيق شهاب الدّين أبو عمرو ، دار الفكر للطّباعة و النّشر ، بيروت ، ط١، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.

٢٩. طبقات النّحويين و اللّغويين.لأبي بكر محمد الزّبيدي .تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ، ط٢ ، دار المعارف ، مصر .

٣٠. ظاهرة الإبدال اللّغوي دراسة وصفيّة تطبيقيّة ، د. علي حسين البوّاب ، دار العلوم للطّباعة و النّشر ،ط١ ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٣١. ظاهرة التّأويل في إعراب القرآن الكريم . د. محمّد عبد القادر هنادي .مكتبة الطّالب الجامعي ، مكّة المكرّمة ،ط١ ، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨م.

٣٢. ظاهرة التّوهّم في الدّراسات النّحويّة و التّصريفيّة ، د. سيّد رزق الطّويل، جامعة أمّ القرى ، مجلّة معهد اللّغة العربيّة، العدد١، ١٤٠٢هـ/ ١٤٠٣هـ .

٣٣. علل التّغيّر اللّغوي . د . مصطفى النّوني ، دار شمس المعرفة ، ١٩٩٠ م .

٣٤. علم الاجتماع و مدارسه ، د / مصطفى الخشاب ،مكتبة الأنجلو المصريّة ،القاهرة ، ١٩٨١ م .

٣٥. علم اللّغة . د. علي عبد الواحد وافي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ط٩ .

٣٦. علم اللّغة و فقه العربيّة .د. عبد محمّد الطّيّب ، ط١، المطبعة الإسلاميّة الحديثة ،١٩٩٣م.

٣٧. علم اللّغة الاجتماعي . د . هدسون ، ترجمة د. محمود عيّاد ،ط٢، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٠م.

٣٨. عيوب اللّسان و اللّهجات المذمومة ، د. رشيد عبد الرحمن العبيدي ، مجلّة المجمع العلمي العراقي ، ج٣، المجلد ٣٦ ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م.

٣٩. العين . الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) تحقيق د. مهدي المخزومي ، و د. إبراهيم السّامرائي ، الجمهوريّة العراقيّة ، وزارة الثّقافة و الإعلام ، دار الرّشيد للنشر ، ١٩٨٠م .

٤٠. فصول في علم اللّغة العام . فرديناند دي سوسير ، ترجمه من الفرنسيّة إلى الإنجليزيّة واد باسكين و ترجمه إلى العربيّة د . أحمد نعيم الكراعين ، دار المعرفة الجامعية ، من دون تاريخ .

٤١. قاموس علم الاجتماع .د محمد عاطف غيث ، دار المعرفة الجامعيّة .

٤٢. فقه اللّغة في الكتب العربيّة . د. عبده الرّاجحي ، دار النّهضة العربيّة ، بيروت، من دون طبعة ، و تاريخ .

٤٣. الفلسفة اللّغوية و الألفاظ العربيّة . جرجي زيدان ، مراجعة و تعليق د. مراد كامل ، دار الهلال ، ١٩٦٩ م .

٤٤. في فقه اللّغة من قضايا الدّلالة . د. عبد محمّد الطّيّب ، دار البشرى للطّباعة ، القاهرة ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥ م .

٤٥. في اللّهجات العربيّة . د. إبراهيم أنيس ، مطبعة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٣م.

٤٦. القاموس المحيط . مجد الدّين محمّد يعقوب الفيروزآبادي ، دار الجيل ، بيروت ، من دون تاريخ .

٤٧. القياس في اللّغة العربيّة . د. محمّد حسن عبد العزيز ،ط١، دار الفكر العربي ، القاهرة ،١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٤٨. الكامل لأبي العبّاس محمّد بن يزيد المبرّد ، عارضه بأصوله و علّق عليه محمّد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ،القاهرة ،من دون تاريخ.

٤٩. الكتاب (كتاب سيبويه) أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون ، عالم الكتب للطّباعة و النّشر ، بيروت، ، ١٣٧٧هـ .

Scanned with CamScanner

٥٠. اللّحن في الأصوات العربيّة على ألسنة المعجم القدامى دراسة تحليليّة في ضوء أثارات عن اختلاط السُّكّان بالبصرة . عبد الحميد الأقطش ، مجلّة أبحاث اليرموك ع ١، المجلّد ١٦ ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨ م .

٥١. لسان العرب للإمام العلامة ابن منظور (٦٣٠ / ٧١١ هـ)دار صادر ، بيروت ، ط٦ ، ١٤١٧هـ .

٥٢. لغات طيئ . د. محمّد يعقوب تركستاني، رسالة دكتوراه، جامعة أمّ القرى ، كلّيّة اللّغة العربيّة ،١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٥٣. اللّغات في الكتاب لسيبويه المستوى النّحوي ، ماجد عمر القرنيّ ، رسالة ماجستير ، الجامعة الإسلاميّة ، كلّيّة اللّغة العربيّة ، ١٤٢٤هـ .

٥٤. اللّغة . ج . فندريس ، تعريب عبد الحميد الدّواخلي ، و محمّد القصّاص ، مكتبة الإنجلو المصرية ، ١٣٧٠ هـ / ١٩٥٠م .

٥٥. اللّغة بين الفرد و المجتمع . جسبرسن ، ترجمة د. عبد الرّحمن أيوب ، مطبعة الأنجلو المصريّة ، ١٩٥٤م .

٥٦. اللّغة بين المعياريّة و الوصفيّة . د. تمّام حسّان ، دار الثّقافة ، الدّار البيضاء .

٥٧. اللّغة العربيّة في مواجهة الحياة . د. عبد محمّد الطّيّب ، مطبعة الأمانة ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م .

٥٨. اللّغة و المجتمع .د. علي عبد الواحد وافي ، ط٤، عكاظ للنشر و التوزيع ، جدة ،١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٥٩. لغويو القرن الثّاني و ظاهرة التّصحيف . سنّيّة أحمد محمود، آداب المستنصرية ، العدد ٦، ١٩٧٨م.

٦٠. لهجات العرب و امتدادها إلى العصر الحاضر . د.عبد محمّد الطيب ، ط١، القاهرة ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م .

٦١. اللّهجات العربيّة في التّراث . د. أحمد علم الدّين الجندي ، الدّار العربيّة للكتاب ، ليبيا و تونس ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٦٢. اللّهجات العربيّة نشأة و تطورا . د. عبد الغفّار حامد هلال ، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٦٣. المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز . لابن عطيّة ، تحقيق المجلس العلميّ بفاس ، المغرب ، ١٣٩٥هـ .

٦٤. مختصر في شواذّ القرآن من كتاب البديع .لابن خالويه ، مكتبة المتنبي ، القاهرة.

٦٥. المزهر في علوم اللّغة و أنواعها . عبد الرّحمن جلال الدّين السّيوطيّ ،شرحه و ضبطه ،محمّد أحمد جاد المولى ، و علي محمّد البجاوي ، و محمّد أبو الفضل إبراهيم ، منشورات المكتبة العصريّة ،بيروت ، ١٩٨٦م .

٦٦. معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب . تأليف ياقوت الحموي الرّومي ، تحقيق إحسان عبّاس ، ط١، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٣م .

٦٧. مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب . تأليف الإمام ابن هشام الأنصاري ٧٦١هـ، تحقيق محمّد محي الدّين عبد الحميد ، المكتبة العصريّة ، بيروت ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧ م .

٦٨. الملامح الأدائيّة عند الجاحظ في البيان و التّبيين . د .عبد الله ربيع محمود، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٦٩. الممتع في التّصريف .ابن عصفور الإشبيلي (ت٦٦٩هـ) ،تحقيق فخر الدّين قباوة ، دار المعرفة ، بيروت ،لبنان ، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٧٠. من أسرار اللّغة .د/ إبراهيم أنيس ،مكتبة الإنجلو المصرية،القاهرة ،ط٦،١٩٨٧م.

٧١. المنصف لابن جني (و هو شرح كتاب التّصريف لأبي عثمان المازني) تحقيق إبراهيم مصطفى ، و عبد الله أمين ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ط١، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م .

٧٢. من عيوب النّطق اللّثغ بالراء . لأستاذي أ.د . سليمان بن إبراهيم العايد ، جامعة أمّ القرى ،السّنة الثّالثة ، العدد الخامس ، ١٤١١هـ .

Scanned with CamScanner

٧٣. النُّموُّ اللُّغوي و الطُّفولة . د. عبد العزيز علام ، جامعة الأزهر ، مجلّة كلّيّة اللُّغة العربيّة بالقاهرة ، ع٨، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

٧٤. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع لجلال الدّين السُّيوطي (ت ٩١١هـ) الجزء الأوّل تحقيق عبد السّلام هارون، و عبد العال سالم مكرم ، مؤسّسة الرّسالة ، بيروت ، لبنان ، ط٢، ١٤٠٧هـ ، الجزء الثّاني تحقيق عبد العال سالم مكرم ، مؤسّسة الرسالة بيروت ، ط٢، ١٤٠٧هـ ، و بقيّة الأجزاء (٣-٧) تحقيق عبد العال سالم مكرم ، دار البحوث العلميّة ، الكويت ، ١٣٩٧هـ / ١٩٨٢م .

القاف العربية: صورها النطقية وإبدالها، وتأثيرها في مجاوراتها

(دراسة صوتية ودلالية)

الدكتور

عبد الكريم محمد حسن جبل

Scanned with CamScanner

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وأصحابه وجدّه أبى الأنبياء إبراهيم، وبعد...

فهذه دراسة تتعلّق بأحد الأصوات «المشكلة» فى اللغة العربية، وهو صوت القاف، ذلك الذى عالج ضروبًا من «التقلُّب الفونيمى» أثمرتْ صورًا نطقية Allophones متعددة له فى عالمنا العربى المعاصر.

وتنهض الدراسة على البحث فى ثلاث مسائل أساسية تتعلق بهذا الصوت، وقد أُفْرِد لكل منها مبحث مستقلّ:

فأما المبحث الأول: فيُعنى بدراسة الصور النطقية لصوت القاف، كما يتجسد فى وصف قدامانا له، وكما يتحقّق فى عالمنا العربى المعاصر، مع الموازنة بين هذه الصور النطقية للوقوف على تلك التى عناها القدماء بوصفهم. وقد قفّيتُ هذا المبحث بمحاولة وضع «تصوُّر ترجيحىّ» لتوالد هذه الصور النطقية معتبرًا ما قرّره الدرسُ اللغوىّ المقارن بشأن تحديد النطق الأقدم لهذا الصوت.

وأما المبحث الثانى: (= إبدال القاف)، فقد خصّصتُه لدراسة ما أوردته بعض كتب اللغة - وعلى رأسها كتب الإبدال - على أنه أمثله لحصول الإبدال بين القاف وغيرها من الأصوات، مقسّمًا تلك الأمثلة إلى أمثلة تتحقّق فيها العلاقة الصوتية، وأخرى تعوزها تلك العلاقة. مع محاولة بيان «الأصيل» و«المبدل» فى أمثلة القسم الأول، وبيان خروج أمثلة القسم الثانى من دائرة «الإبدال» إلى دائرة «الترادف».

وأما المبحث الثالث: (= تأثير القاف فى مجاوراتها)، فقد كَسَرتُه على الحديث عن تأثير القاف فى الأصوات الصفيرية (س-ص-ز) التى تجاورها فى بعض جذور اللغة، وهو التأثير الذى اتخذ لدى بعض القبائل العربية منحًى مطردًا، أو شبه مُطّرد.

وقد قدمتُ بين يدى هذه المباحث الثلاثة بـ«تمهيد» عرضتُ فيه لأهم المفاهيم الاصطلاحية التى تتردد تردُّدًا فى أثناء البحث، وهى تلك الخاصة بصفات الأصوات - أو ملامحها التمييزية - موازنًا فى ذلك بين «كلام» قدامانا، وما قرره المحدثون.

وأما «الخاتمة»، فقد عرضت فيها لأهم النتائج التى أمكن الوقوف عليها من خلال هذه الدراسة.

والدراسة - بعد - دراسة صوتية فى معظمها كما هو ظاهر. وأما الجانب (الدلالى) فيها، فيتمثّل - على نحو خاص - فى المبحث الثانى (= إبدال القاف) حيث اعتمدت المعيار الدلالى أساسًا لتحديد «الأصيل» و«المبدل» من الأمثلة التى تحققت فيها العلاقة الصوتية (ق/ك - ق/غ)، كما اعتمدته أساسًا - كذلك - لإخراج الأمثلة التى لا تتحقق فيها هذه العلاقة من دائرة «الإبدال» إلى دائرة «الترادف».

وقد استعنتُ فى عملى هذا بكل ما استطعت الوقوف عليه من مصادر عربية: تراثية ومعاصرة، ومصادر أجنبية: مترجمة وغير مترجمة، مما حسبت أن فيه إفادة لأى جانب من جوانب الدراسة.

....**وبعد**، فهذا جهد أدعو الله - جلّ وعزّ - أن يتقبّله، وأن ينفع به، وأن يتجاوز عما قد يكون به من قصور.

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾

[الكهف: ١٠/١٨]

Scanned with CamScanner

تمهيد

أ. صفات الأصوات

تتمايز الأصوات اللغوية - بعضها عن بعض - بتنوع المخارج التى تنتج منها (شفوية - لثوية - لَهَوية...). وتتباين - كذلك - باستئثار كلٍّ منها بمجموعة من «الصفات» أو الملامح التمييزية distinctive Features، كالجهر والهمس، والشِّدَّة والرَّخاوة، وغيرها.

ولهذه الصفات - أو الملامح التمييزية - أهميتها المعتبرة؛ إذ أنها - فى جانب منها - مناط التفريق بين الأصوات ذات المخارج الواحدة - أو المتقاربة - كالتاء والدال، والسين والصاد مثلاً. يقول مكّى بن أبى طالب القيسى، (ت٤٣٧هـ): «**فالحروف تكون من مخرج واحد، وتختلف صفاتُها؛ فيختلف لذلك ما يقع فى السمع من كل حرف**»[١]، ويقول شهاب الدين القَسْطَلانى (ت٩٢٣هـ): «**وفائدتها** (أى: الصفات) **تمييز الحروف المشاركة فى المخرج؛ إذ لولاها لا تُحدث**»[٢].

ويمكن النظر إلى هذه الصفات من ثلاثة اعتبارات رئيسية[٣]:

- طريقة النطق menner of articulation (شدّة/ رخاوة..).
- حالة الوترين الصوتيين vocal cords لدى النطق بالصوت (جهر/ همس...).
- مشاركة مؤخَّرة اللسان - منفردًا أو مع طرفه - فى إنتاج الصوت (استعلاء/ إطباق...).

فأما الاعتبار الأول (= طريقة النطق)، فيصنِّف المحدثون - على أساسه - الأصوات اللغوية إلى ثلاثة أنواع أساسية:

(١) مكى بن أبى طالب القيسى: الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، ص٥٦.

(٢) شهاب الدين القسطلانى: لطائف الإشارات لفنون القراءات ١/١٩٦.

(٣) انظر: د. تمام حسان: مناهج البحث فى اللغة ص١١٢، وانظر - كذلك -:

-Hawkins: Introducing phonology, P.74

١- الأصوات الوقفية[١] Stops، وهى تلك الأصوات التى «تنتج عن طريق الإيقاف الكامل لمجرى الهواء - بشكل ما - لمدّة وجيزة جدًّا، ثم إلاطلاقه فجأة»[٢]. فإنتاج الصوت «**الوقفى**» - إذن - يحدث كما يلى[٣]:

- التقاء عضوين من أعضاء النطق التقاءً محكمًا.
- احتباس الهواء خلف نقطة التقائهما.
- انفصال العضوين فجأة، وانطلاق الهواء؛ فينتج الصوت.

وتتعدّد الوسائل - وكذا المواضع - التى يحصل بها - أو عندها - هذا الإيقاف الكامل لمجرى الهواء كانطباق الشفتين، أو التقاء مقدَّم اللسان بلثة الثنايا العليا، أو غير ذلك.

والأصوات الوقفية فى العربية المعاصرة - كما تتجسَّم فى نطق قرّاء القرآن الكريم - هى: **الهمزة، والباء، والتاء، والدال، والطاء، والضاد، والكاف، والقاف**[٤].

٢- الأصوات الاحتكاكية[٥] **Fricative**، وهى «تلك الأصوات التى تنتج حين

(١) تسمى كذلك بالانفجارية Plosive على أساس أن الهواء «المحتبس» فى الفم «ينفجر» حين يُمْتَض المُعتَرض، انظر:

- O'conner: Phonetics, P.47.

- Fromkin: An introduction to language, P.193.

وانظر - كذلك -: د. السعران: علم اللغة: مقدمة للقارئ العربى ص١٥٣، ود. بشر: علم الأصوات ص١٩٧، ود. أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوى ص١١٧، ود. الخولى: الأصوات اللغوية ص٣٧.

(2) Yale: The study of language, P.39

-Phonetics, P.47.

وانظر - كذلك -:

(٣) انظر: مناهج البحث فى اللغة ص١١٢، وعلم اللغة - مقدمة ص١٥٣.

- Al - ani, Arabic phonology, P.31.

وانظر - كذلك -:

(٤) وانظر: د. أنيس: الأصوات اللغوية ص٢٣، وعلم الأصوات ص١٩٧.

(٥) وتسمى كذلك بالاستمرارية continuant

انظر:

Carr: Phonology, P.56.

وانظر - كذلك -: دراسة الصوت اللغوى ص١١٨.

Scanned with CamScanner

يتقارب عضوان من أعضاء النطق تقاربًا شديدًا بحيث يُحدث الهواءُ المارّ بينهما احتكاكًا مسموعًا "audible Friction"(١).

فليس ثمة - إذن - إيقاف كامل لتيار الهواء، كما هو الشأن فى الأصوات الوقفية، بل تضييق شديد لمنفذ مرور هذا التيار عند نقطة ما؛ مما يولّد احتكاكًا يجسّم جَرْسُه أحد الأصوات الاحتكاكيّة(٢).

٣ - **الأصوات المركّبة** Affricates، والمقصود بتركيبها هو أنها تجمع بين صفتى الانفجار والاحتكاك، فهى تنتج «حين يحصل إغلاق كامل فى الجهاز الصوتى؛ فيحتبس الهواء خلفه، ثم يحصل تسريب تدريجى لهذا الهواء المحتبس: فبدء حصول هذا التسريب يمثل عنصر الانفجار. وأما عنصر الاحتكاك، فيتأتى من أن الانفصال الذى يعقب هذا التسريح يكون من البطء بحيث يُحدث احتكاكًا مسموعًا»(٣).

فالصوت المركّب - إذن - يبدأ وقفيًا انفجاريًا لينتهى احتكاكيًا، وذلك كما هو الشأن فى الجيم العربية المعطّشة الفصيحة، وكما هو الشأن فى الصوت الأول من كلمة Child الإنجليزية(٤).

وأمّا قدامانا، فقد ميّزوا - فى هذا الصدد - بين صفتين أساسيتين، هما: «الشِّدّة» فى مقابل «الرَّخاوة»:

---

(١) وانظر - كذلك:
- Crystal: A dictionary of Linguistics and phonetics, P.159
- Phonetics, P.4

(٢) وانظر فى التقسيمات الفرعية للأصوات الاحتكاكية (صفيرية...): دراسة الصوت اللغوى ص١١٨ - ١١٩، ود. الحولى: الأصوات اللغوية ص٣٧.

(٣) وانظر - كذلك:
- Ladefoged: A course in phonetics, P.9.
- A dictioary of Linguistics and Phonetics, P.12.
- A course in Phonetics, P11.
- Phonology, PP.56 - 57.

(٤) وانظر: مناهج البحث فى اللغة ص١١٣، ودراسة الصوت اللغوى ص١١٩ - ١٢٠، وعلم اللغة - مقدمة ص١٦٦ - ١٦٧.

- «**الشِّدّة**»: وقد عرَّفها سيبويه (ت١٨٠هـ) - وصفًا - بقوله: «ومن الحروف: الشديد، وهو الذى يمنع الصوتَ أن يَجرى فيه... وذلك أنك لو قلت: الحجّ، ثم مددت صوتَك لم يَجْرِ فيه»(١).

- «**والرَّخاوة**»: وقد عرَّفها سيبويه - وصْفًا كذلك - بقوله: «ومنها الرِّخوة، وهى: الهاء، والحاء.. والضاد.. والسين، وذلك إذا قلتَ: الطّسّ وانقض، وأشباه ذلك، أجريتَ فيه الصوتَ إن شئتَ»(٢).

وقد تابعَ سيبويه فى تعريفه لهاتين الصفتين جمهرةُ اللغويين والنحاة، وعلماء التجويد والقراءات، جامعين الأصوات الشديدة فى عبارة «**أجدك قَطَبْتَ**»(٣).

ويحسن الالتفاف - هنا - إلى أن «مصطلح الشدّة (عند سيبويه) مأخوذ من استعمال الشَّدّ لغويًا، بمعنى: رَبْط فم الكيس أو الوعاء؛ حتى لا يخرج منه شىء، تسيُّبًا أو تبعثُرًا... وليست صفة الشِّدّة مأخوذة من الشِّدّة بمعنى القوة، كما ظنّ بعض علماء التجويد المتأخرين»(٤).

---

(١) الكتاب ٤/٤٣٤.

(٢) الكتاب ٤/٤٣٥.

(٣) انظر - مثلاً -: ابن السرّاج: الأصول فى النحو ٣/٤٠٢، وابن جنى: سر صناعة الإعراب ١/٦١، وأبو البركات ابن الأنبارى: أسرار العربية ص٤٢٤، وابن يعيش: شرح المفصل ١٢٩، والرضى الاستراباذى: شرح الشافعية ٣/٢٦٠، وابن عصفور: الممتع ٢/٦٧٢، وأبو حيان الأندلسى: إرتشاف الضَّرَب ١/١٧، وابن عقيل: المساعد على تسهيل الفوائد ٤/٢٤٦.
وانظر: من كتب التجويد والقراءات: الرعاية لتجويد القراءة ص١١٧، و التحديد فى الإتقان ص٢٢٦، وابن الباذش: الإقناع فى القراءات السبع ١/١٧٤ - ١٧٥، وابن الجزرى: التمهيد فى علم التجويد ص٨٧ - ٨٨، والنشر فى القراءات العشر ١/٢٠٢، ولطائف الإشارات ١/١٩٨.
ويتضح - بعد - أن الخلاف بين تحديد القدماء والمحدثين للأصوات الشديدة والرخوة يكاد ينحصر فى صوتى الجيم والضاد؛ إذ عدّ القدماء الأول شديدًا فى حين عدّه المحدثون مركّبًا، وعدّ القدماء الثانى من الأصوات الرخوة، فى حين عدّه المحدثون من الأصوات الشديدة معتبرين فى ذلك الضاد المصرية الغالبة على قراءة القرآن الكريم.

(٤) د. محمد جبل: المختصر فى أصوات اللغة العربية ص٦٧، وانظر: تاج العروس (شدّ) ٨/٢٤١، واللسان (وكى) ٦/٤٩١١.

Scanned with CamScanner

ومن الواضح - بعد - أنّ ثمة تطابقًا بين مفهومى «الشدّة» و«الرّخاوة» لدى سيبويه - ومن سار على جديلته - ومفهومى «الإيقاف» و«الاحتكاك» لدى المحدثين؛ من حيث وحدة المعيار لدى كلٍّ: «مَنْع الصوت» أو «جريانه» لدى سيبويه، مقابل «إيقاف تيار الهواء»، أو «استمراريته» لدى المحدثين[1].

وأشير - أخيرًا فى هذا الصدد - إلى أن ثمة صفة صوتية ثالثة عرض لها القدماء، وهى «التوسط بين الشدّة والرخاوة»، وقد جمعوا الأصوات المتصفة بهذه الصفة فى عبارة «لن عمر». وتتميز هذه الأصوات - فى رأيهم - بأنها تجمع بين صفتى الشدّة والرخاوة؛ من حيث حصول اعتراض لمجرى الهواء فى موضع ما (= عنصر الشدّة)، ومرور النَّفس على الرغم من ذلك من منفذ آخر (= عنصر الرخاوة)، كما هو الشأن فى صوت اللام مثلاً[2].

وأما من حيث الاعتبار الثانى (= حالة الوترين الصوتيين لدى النطق بالصوت)، فيميّز المحدثون بين صفتين أساسيتين: «الجهر» فى مقابل «الهمس»:

فاما مصطلح الجهر: فيشير إلى «الأثر السمعى الناتج من تذبذب الوترين الصوتيين Vocal cords»[3]. والسبب فى حصول هذا التذبذب هو أن الوترين الصوتيين يكونان - لدى النطق بالصوت المجهور - متقاربيْن «أو فى وضْع تلامُس، ثم

(١) وانظر فى التعليق على تعريف سيبويه لهاتين الصفتين:
شاهد: علم الأصوات عند سيبويه وعندنا ص٨-١٠، وكانتينو: دروس فى علم أصوات العربية ص٣٦٣٥، ود. أنيس: الأصوات اللغوية ص١٢٦-١٢٧، ود. رمضان عبد التواب: المدخل إلى علم التطور اللغوى للعربية ص١٢١-١٢٥.

(٢) انظر: الكتاب ٤/٤٣٥، وسر الصناعة ١/٦١، والمنصف ٢/٦٧٣-٦٧٥، وشرح الشافية ٣/٢٦٠-٢٦١، والنشر فى القراءات العشر ١/٢٠٢. وانظر فى التعليق على كلام القدماء بشأن هذه الصفة: أنيس: الأصوات اللغوية ص٢٤-٢٥، وجامع البحث فى اللغة ص١١٣، والمختصر فى أصوات اللغة العربية ص٦٨.

(٣) A dictionary of linguistics and Phonetics, P.413.

يباعد بينهما بقوة من الأسفل إلى الأعلى التيارُ الرئوىُّ المتدفق من خلال فتحة المزمار، وتتكرّر عملية الملامسة والتفريق مكوِّنة ذبذبة»[1].

فصوت هذه الذبذبة (= أثرها السمعى) - إذن - هو مفهوم صفة «الجهر»، والصوت المجهور Voiced هو الصوت الذى يصحبه ذلك الأثرُ السمعى.

وأما «الهمس»: فهو عكس «الجهر»، «فالصوت المهموس هو الذى لا يهتزّ معه الوتران الصوتيان، ولا يُسمَع لهما رنين حين النطق به»[2].

والصوامت المجهورة Voiced فى العربية المعاصرة - كما تتجسّم فى نطق قرّاء القرآن الكريم - هى: الباء، والجيم، والدال، والذال، والراء، والزاى، والضاد، والظاء والعين، والغين، واللام، والميم، والنون، والواو (فى نحو: ولد)، والياء (فى نحو: يئس)، وما عداها مهموس Voiceless[3].

وأما سيبويه (١٨٠هـ)، فقد عرّف الجهر والهمس بقوله: «فالمجهورة: حرف أُشبع الاعتماد فى موضعه، ومَنَعَ النَّفَسَ أن يجرى معه حتى ينْقضى الاعتمادُ عليه ويَجرى الصوتُ.. وأما المهموس، فحرف أُضعف الاعتماد فى موضعه حتى جرَى النَّفَسُ معه»[4] وقد عين سيبويه الصوامت المهموسة فى العربية، وهى تلك المكوِّنة لعبارة: «سكت فحثَّه شخص»، وما عداها فهو مجهور.

ومهما يكن من أمر هذا التعريف[5]، وما يبدو فيه من «تداخل» بين تعريفا

(١) دراسة الصوت اللغوى ص١٢٨.
(٢) د. أنيس: الأصوات اللغوية ص٢٠.
(٣) وانظر: د. أنيس: الأصوات اللغوية ص٢١، ود. بشر: علم الأصوات، ودراسة الصوت اللغوى ص٧٧. وأما صوت الهمزة، فجهره أو همسه موضع خلاف. انظر: د. أنيس: الأصوات اللغوية ص٩٠، و الأصوات ص٢٨٨، ودراسة الصوت اللغوى ص٢٧٧.
(٤) الكتاب ٤/٤٣٤.
(٥) انظر فى محاولة شرح تعريف سيبويه للجهر والهمس: علم الأصوات عند سيبويه وعندنا ص١٠ ود. أنيس: الأصوات اللغوية ص١٢٤-١٢٦، والمدخل إلى علم اللغة ص٣٩-٤٠، ود. الطيب البكو النظريات الصوتية فى كتاب سيبويه ص١٤٧، ونظرات فى التطور الصوتى للعربية ص١٢١-١٢٥.

Scanned with CamScanner

مجهورة لهاتين الصفتين؛ والطرائق السابق إعطاؤها للشدة والرخاوة(١)، فإن تعريف الصوت بأنه مجهور أو مهموس من أصوات العربية(٢) لمما يشهد بوقوع على حقيقة الصوت؛ إذ كان هذا التعريف قائمًا من الأساس والغموض.

وقد رأى جمهور المحدثين والقائمين على علم التجويد والقراءات تعريف سيبويه ذلك السابق؛ حيث وجدوا فيه وضوحًا وتحديدًا(٣) والعمل لغموض التعريف هو ما دعاهم إلى ذلك:

وأما من حيث الأعضاء المشاركة (وضع مؤخر اللسان لدى النطق بالصوت)، فيميز المحدثون - في عمومه، دون وصفٍ تفصيلي:

١. الطبقية Velar articulation: ويشير هذا الوصف إلى «إنتاج الصوت عن طريق رفع مؤخر اللسان نحو أقصى الحنك اللين Soft palate»(٤) في «الطبقية» - إذن - «حركة عضوية مقصودة لاتجاه بأقصى طرف اللسان معها في وضع محايد»(٥).

والأصوات الطبقية - بالمفهوم المستقر في العربية المعاصرة، هي أصوات: القاف، والخاء، والغين، و(الكاف).

٢. الإطباق Velarisation: وهو مصطلح دال على نطق ثانوي يتضمن حركة للجزء الخلفي من اللسان تجاه الحنك اللين. وحتى يوصف الصوت بأنه مُطبق velarized،

---

(١) وذلك من حيث ذكره للجهر «مع النفس الذي يجهر به حتى يجري النفس» في الهمس، وهما قريبان جدًا كما ذكرهما غيرنا في تعريفه لـ«الشدة والرخاوة».

(٢) مع وجود خلاف معروف حول جهر صوتي الضاد والظاء.

(٣) انظر - مثلاً -: الأصول في النحو ٣/٤٠١، وسر الصناعة ١/٦٠، وأسرار العربية ص٤٢٣، وشرح المفصل ١٢٨/١، ١٢٩، والممتع ٢/٦٧١، وشرح الشافية ٣/٢٥٠٠، وارتشاف الضرب ١/١٧.

وانظر من كتب التجويد والقراءات: الرعاية لتجويد القراءة ص١٢٣، والتحديد في الإتقان ص٢٢٥، والتمهيد في علم التجويد ص٨٦، ٨٧، والنشر في القراءات العشر ١/٢٠٢، ولطائف الإشارات ١/١٩٧.

(٤) A dictionary of Linguistics and phonetics, P.406.

(٥) مناهج البحث في اللغة ص١١٥، وانظر: د. الحولي: الأصوات اللغوية، ومدخل إلى علم اللغة ص٣٨.

عرفنا موضع نطقه الأساسي بخصوص كما يذكرون في موضع الغين من اللهاة عند الحنك اللين»(١).

والصوت «المُطبق» - إذن - يتميز بكونه:

- ينتج في أي موضع من الفم غير الطبق (= الحنك اللين)،

- يصاحب نطقه ارتفاعُ مؤخر اللسان تجاه الحنك اللين.

فصوت «الطاء» - مثلاً - ينتج بوضع طرف اللسان تحت الثنايا العليا، وهذا هو موضع نطقه الأساسي، إلا أنه يصحبه - كذلك - ارتفاع مؤخر اللسان تجاه الحنك اللين؛ فهو لذلك صوت «مطبق»، وأما الأصوات «الطبقية»، فتنتج - أساسًا - من الطبق (الحنك اللين)(٢).

والأصوات «المطبقة» في العربية المعاصرة هي أصوات: الصاد، والضاد، والطاء والظاء.

وأما قدامانا، فقد ميزوا - في هذا الصدد - بين زوجين من الصفات المتقابلة: «الاستعلاء» في مقابل «الاستفال»، و«الإطباق» في مقابل «الانفتاح»:

(الاستعلاء/الاستفال):

عيَّن القدماء الأصوات المستعلية في العبارة، وجمعوها في عبارة «خُصَّ ضغطٌ قظٌ». وعلَّل جمهور المتقدمين منهم لوصفها بالاستعلاء، بأن اللسان «يصعد أو «يستعلي» - لدى النطق بها تجاه الحنك الأعلى(٣) في حين دقق بعض المحدثين

---

(١) A dictionary of Linguistics ... P.409.

وانظر: كذلك:

A Course in Phonetics, P.211.

(٢) وانظر: مناهج البحث في اللغة ص١١٨، ودراسة الصوت اللغوي ص١١٢، والمدخل إلى علم اللغة ص٣٧، ٣٨، ود. الحولي: الأصوات اللغوية ص٤٦، ٤٧.

(٣) انظر - مثلاً -: الكتاب ٤/٤٧٩ (في حديث سيبويه عن القاف وقلب الجيم صادًا قبلها)، والمقتضب ١/٢٦٠، وسر الصناعة ١/٦٢، وأسرار العربية ص٤٢٤، وشرح المفصل ١٠/١٢٩، والممتع ١/٢٧٠، وانظر من كتب التجويد والقراءات: الرعاية لتجويد القراءة ص١٢٢، والتحديد في الإتقان ص٢٢٥، والتمهيد في علم التجويد ص٩١، ٩٢، والنشر في القراءات العشر ١/٢٠٢.

Scanned with CamScanner

فجعل ارتفاع «أقصى اللسان» خاصة - لاجرْمه كله - هو مناط الوصف بـ «الاستعلاء» يقول «ساحُقْلى زاده» - ت ١١٥٠هـ - مثلاً: «الاستعلاء: أن يستعلى أقصى اللسان عند النطق بالحرف إلى جهة الحنك الأعلى»[١]. وبرهن على ذلك بأن أصوات الجيم والشين والياء والكماف لم توصف بأنها «مستعلية»، على الرغم من «استعلاء» وسط اللسان لدى نطق الثلاثة الأول، و«استعلاء» ما بين أقصى اللسان ووسطه لدى نطق الصوت الاخير (الكاف)[٢].

وأما الأصوات «المستفلة»، فتشمل باقى الأصوات، أى كل ماعدا المجموع فى عبارة «حص ضغط قظ». وقد لُقِّبتْ بذلك؛ لأن اللسان - أو أقصاه كما خصص بعض المتاخرين - لا يستعلى لدى النطق بها، بل «يتسفّل» فى قاع الفم[٣].

(الإطباق/الانفتاح)

المقصود بـ «الإطباق» - كما يتبدّى من كلام سيبويه - هو ارتفاع أقصى اللسان، وكذلك طرفه، لدى النطق بأصوات الصاد والضاد والطاء والظاء، بحيث «يكون الصوت محصوراً فيما بين اللسان والحنك»[٤]. فلهذه الأصوات - إذن - «موضعان من اللسان» - على حدّتعبير سيبويه -:[٥] أقصاه، وطرفه.

وأما «الانفتاح»، فهو - بالمقابلة - عدم ارتفاع أقصى اللسان وطرفه لدى النطق بالصوت، أى «انفتاح» المسافة بين جرْم اللسان والحنك الأعلى[٦].

---

(١) جهد المقلّ ص٦٥. وانظر فى تتبع تعيين ارتفاع «أقصى اللسان» خاصة تجاه الحنك اللين سببًا فى الوصف بالاستعلاء: المحصر فى أصوات اللغة العربية ص٧٤ (هامش الصفحة).

(٢) انظر: جهد المقلّ ص٦٤،٦٦. وانظر - كذلك بالشيخ محمد مكى نصر: نهاية القول المفيد فى علم التجويد ص٥٧

(٣) انظر - مثلاً -: التحديد فى الإتقان ص٢٢٨، والمساعد على تسهيل الفوائد ٤/٢٤٧، ولطائف الإشارات ١/١٩٨.

(٤) الكتاب ٤/٤٣٥. وانظر - كذلك - الأصول فى النحو ٣/٤٠٤، وسر الصناعة ١/٦١، والرعاية لتجويد القراءة ص١٢٢، وأسرار العربية ص٤٢٤.

(٥) الكتاب ٤/٤٣١.

(٦) وانظر: الرعاية لتجويد القراءة ص١٢٣، وأسرار العربية ص٤٢٤، ولطائف الإشارات ١/١٩٨.

والأصوات «المنفتحة» هى كل ما عدا «المطبقة»، أى كل ما عدا: الصاد والضاد والطاء والظاء.

ويتبين لنا - بعد - ما يلى:

- أن مفهوم «الإطباق» أعمّ من مفهوم «الاستعلاء» لدى قدامانا؛ لان «الإطباق» يستلزم ارتفاع طرف اللسان - فضلاً عن أقصاه - وارتفاع أقصى اللسان هو مناط الوصف بـ «الاستعلاء»؛ فكل صوت مطبق هو مستعلٍ بالضرورة، والعكس غير صحيح: فالحاء - مثلاً - مستعلية؛ لأنها تنتج بارتفاع أقصى اللسان تجاه الحنك اللين ولكنها غير مطبقة (منفتحة) لعدم ارتفاع طرف اللسان - كذلك - لدى النطق بها[١]؛ «فالاطباق فى اللغة العربية نوع من الاستعلاء»[٢].

- أن مفهوم «الطَّبَقيّة» - لدى المحدثين - أعمّ قليلاً من مفهوم «الاستعلاء» لدى قدامانا؛ فـ «الطبقية» تعنى مشاركة أىّ جزء من مؤخرّ اللسان فى إنتاج الصوت، فى حين أن «الاستعلاء» يعنى مشاركة أقصى اللسان خاصة فى ذلك، كما دقّق بعض المتأخرين.

- أن مفهوم «الإطباق» لدى المحدثين يكاد يتطابق مع مفهومه لدى قدامانا؛ من حيث اتفاق كلٍّ على أن الاتصاف بتلك الصفة يقتضى مشاركة مزدوجة من كلٍّ من مؤخر اللسان عامة - أو أقصاه خاصة - مع طرفه فى إنتاج الصوت.

•••

---

(١) وانظر: جهد المُقلّ ص٦٧،٦٨، ونهاية القول المفيد ص٥٩.

(٢) برجشتراسر: التطور النحوى للغة العربية ص٢٦. وانظر - كذلك -: دروس فى علم الأصوات العربية ص٣٦،٣٧.

Scanned with CamScanner

١. الصور النطقية للقاف

تعرّضت بعض فونيمات اللغة العربية - ومنها القاف - لضروب من «التغيرات الصوتية المطّردة». وتجسَّم ذلك فى تحقُّق أكثر من صورة نطقية Allophone لكل منها فى اللهجات العربية المعاصرة.

وتتميز هذه الصور النطقية المطّردة بتماثل المعنى، وهذا هو المعيار الأهمّ للحكم باعتدادها صوراً نطقية لفونيم واحد، وعدم اعتدادها فونيمات مستقلة:

فالفعل «قال» - مثلاً - منطوقًا بقاف القراء المعاصرة، أو بالقاف القاهرية التى كالهمزة، أو بتلك البدوية التى كالجيم القاهرية.. يحمل فى كلٍّ معنىً واحد؛ ولذا نحكم بأن كُلاًّ من هذه «النُّطق» تجسِّد صورة نطقية لفونيم واحد، هو فونيم القاف /ق/.

ويُفرَّق - عادة - فى هذا الصدد بين نوعين أساسيين من التغيرات الصوتية(١):

- تغيرات صوتية مطلقة أو غير مقيدة unconditioned Change

والمقصود بها تلك التغيرات «التى تحدث من التحول فى النظام الصوتى للغة بحيث يصير الصوت اللغوى فى جميع سياقاته صوتًا آخر»(٢).

وذلك مثل نطق الجيم المعطشة (الفصيحة) جيماً طبقية غير معطَّشة فى (كل) كلمة تحتوى على هذا الصوت فى اللهجة القاهرية(٣).

(١) انظر فى تفصيل القول فى ذلك: التطور النحوى للغة العربية ص٢٦ - ٢٨، ود. انيس: الأصوات اللغوية ص٢٠٨-٢١١، والتطور اللغوى: مظاهره ص٢٤-٣٠.
وانظر - كذلك -:
(٢) التطور اللغوى: مظاهره ص٢٤. وانظر - كذلك - Iehmann: historical linguistics, PP.190 - 191.
(٣) وانظر: د. انيس: الأصوات اللغوية ص٢٠٨. التطور النحوى للغة العربية ص٢٧.

- تغييرات صوتية مقيدة Conditioned والمقصود بها تلك التغيرات التى يرتبط تحققها «بتجمع صوتى معيَّن، وليست عامة فى الصوت فى كل ظروفه وسياقاته اللغوية»(١).

وذلك مثل نطق السين زايًا إذا وقعت قبل القاف (= القيد) فى لهجة قبيلة «كلب»، على ما سيُفصّل فى المبحث الثالث.

فإذا ما طبقنا هذا التقسيم على الصور النطقية لصوت القاف كما جسّده وَصْف القدماء، وكما يتجسَّد فى اللهجات العربية المعاصرة، فإن **الصور النطقية المطلقة** لهذا الصوت تشمل ما يلى:

- القاف التى وصفها القدماء.
- قاف القراء المعاصرة.
- القاف التى كالهمزة.
- القاف التى كالكاف.

وأما الصور النطقية المقيدة فتشمل:

- القاف التى كالجيم المعطّشة (الفصيحة).
- القاف التى كالدال والزاى مركَّبين (دْز).
- القاف التى كالغين.

مع ملاحظة أن الصورة النطقية الأخيرة مقيدة بقيد ثقافى، لا بقيد صوت على ما سيُفصَّل فى موضعه:

* * *

(١) التطور اللغوى: مظاهره ص٤٩. وانظر - كذلك - التطور النحوى للغة العربية ص٢٧.

Scanned with CamScanner

١ـأ ـ ١: القاف التى وَصَفها القدماء

المقصود بذلك، هو تلك «القاف» التى تردّد نعتُها ـ مخرجًا وصفات ـ فى مصنَّفات القدماء.

وإن استقراء جمهور هذه المصنَّفات ليقودنا إلى تحديد الملامح التمييزية -distinctive Featres لهذه القاف كما يلى:

المخرج: التقاء أقصى اللسان بما فوقه من الحنك الأعلى (= لهوية).

الصفات: ـ وقفية (شديدة).

ـ مجهورة.

ـ مستعلية.

وقد تردّدتْ هذه النعوت ـ دون إضافة أو تعديل مذكور ـ فى كتب اللغة والنحو، وكتب التجويد والقراءات: سواء ما يتعلّق من تلك النعوت بالمخرج[1] أو ما يتعلق منها بالصفات[2].

(١) انظر ـ فى تحديد المخرج ـ من كتب اللغة والنحو: العين ١/٥٧-٥٨، والكتاب ٤/٤٣٣ وابن السّراج: رسالة الاشتقاق ص٣٥، وتهذيب اللغة ١/٤٨، وسر الصناعة ١/٤٧، والحميرى: شمس العلوم ١/٥٨، وأبو البركات ابن الأنبارى: أسرار العربية ص٤٢٠، وشرح المفصل ١٠/١٢٣، والممتع ٢/٦٦٩، وارتشاف الضرب ١/٨، والمساعد على تسهيل الفوائد ٤/٢٤٠.

وانظر ـ من كتب التجويد والقراءات: الرعاية لتجويد القراءة ص١٣٩، والتحديد فى الإتقان ٢٢١، والإقناع فى القراءات السبع ١/١٧١، والتمهيد فى علم التجويد ص٨٣-٨٤، والنشر فى القراءات العشر ١/١٩٩، والطائف الإشارات ١/١٩١.

(٢) انظر ـ فى تحديد صفات ـ من كتب اللغة والنحو: الكتاب ٤/٤٣٤، والمقتضب ١/٣٣١، الأصول فى النحو ٣/٤٠١-٤٠٢، وجمهرة اللغة ١/٤٦، وسر الصناعة ١/٦٠، ٦١، ٦٢، ٢٧٧، وشمس العلوم ١/٨٨، أسرار العربية ص٤٢٢-٤٢٣، وشرح المفصّل ١٠/١٢٨-١٢٩، والممتع ٢/٦٧١، ٦٧٥، وشرح الشافية ٣/٢٥٨-٢٥٩، والمساعد على تسهيل الفوائد ٤/٢٤٥-٢٤٧.=

وسوف نعود ـ فى نهاية هذا المبحث ـ لمناقشة هذه الملامح التمييزية التى عيّنها القدماء لصوت القاف؛ لننظر فى انطباق هذه الملامح على أىٍّ من الصور النطقية المتعددة لهذا الصوت...

١ـأ ـ ٢: القاف البدوية (g)

تُشبه هذه الصورة النطقية للقاف نطق الجيم القاهرية غير المعطّشة، ونطق الكاف الفارسية (الجاف = ك)، إلا أنها أعمق قليلا، وأكثر تفخيمًا.

وهذا يعنى أنها تتميَّز بجملة الملامح التمييزية التالية:

المخرج: التقاء مؤخَّر اللسان (ثلثه الداخلى) بما فوقه من الحنك اللين (= طبقية).

الصفات: ـ وَقْفيّة (شديدة).

ـ مجهورة.

ـ مستفلة.

والقاف البدوية ـ على هذا الوصف ـ تكاد تكون هى النظير المجهور للكاف العربية المهموسة[1].

وتشيع هذه الصورة النطقية للقاف شيوعًا كبيرًا ـ إلى وقتنا هذا ـ فى منطقة الخليج العربى، فيقال: مثلاً[2]:

= وانظر ـ من كتب التجويد والقراءات: الرعاية لتجويد القراءة ص١٧١، والتحديد فى الإتقان ٢٧٣، والإقناع فى القراءات ١/١٧٤-١٧٥، والتمهيد فى علم التجويد ص١٣٨، والنشر فى القراءات العشر ١/٢٠٢، ولطائف الإشارات ١/٢٠٥.

(١) انظر: د. أنيس: الأصوات اللغوية ص٨٥.

(٢) انظر: د. مطر: دراسة صوتية فى لهجة البحرين ص٤٢-٤٣، ود. فالح حنظل: معجم الألفاظ العامية فى دولة الإمارات ص٥١٧، ٥٣٥، ٥٣٦. وقد تمت الاستعانة ـ هاهنا ـ بالرمز الكتابى للكاف الفارسية لتمثيل القاف البدوية، وهما متماثلان تقريبًا.

Scanned with CamScanner

كَلب	بدلاً من	قَلْب
صَكَر	بدلاً من	صَقْر
كُوَّة	بدلاً من	قُوَّة
كَهوه	بدلاً من	قَهْوة

كما تشيع هذه الصورة النطقية - كذلك - فى اليمن والسودان[1] وفى مصر: فى محافظات الصعيد، وفى كثير من قرى الوجه البحرىّ، إلا أنها ربما تكون - وخاصة تلك المنطوقة فى الوجه البحرى - أقلّ عمقًا؛ وبالتالى تفخيمًا، من تلك المنطوقة فى منطقة الخليج العربى[2].

وقد رَصَدَ بعضُ علمائنا شهرةَ هذه القاف، وذيوعها على ألسنة قبائل البدو، وغيرهم، وسَمْوها - أحيانًا - بـ «القاف المعقودة»، مُنبِّهين على مباينتها للقاف المهموسة الغالبة على السنة قرّاء القرآن الكريم:

- قال أبو حيان الأندلسى (ت٧٥٤هـ) - مثلاً - : «وهى (أى: القاف البدوية) الآن غالبة على لسان مَنْ يوجد فى البوادى من العرب، حتى لا يكاد عربى ينطق إلا بالقاف المعقودة، لا بالقاف الخالصة الموصوفة فى كتب النحويين، والمنقولة عن وصفها الخالص على ألسنة أهل الأداء من أهل القرآن»[3].

- وقال ابن خلدون (ت٨٠٨هـ): «وهو (أى النطق البدوى للقاف) موجود للجيل أجمع حيث كانوا من غَرْب أو شرق، حتى صار ذلك علامة عليهم من بين الأمم والأجيال، ومُختصًّا بهم لا يُشاركهم فيها غيرُهم..»[4].

١-أ-٣: قاف القراء (q)

والمقصود بها: تلك القاف التى ينطق بها - الآن - قرّاء القرآن الكريم، التي تشيع -

(١) انظر: د. عابدين: من أصول اللهجات العربية فى السودان ص٤٣.
(٢) وانظر: د. أنيس: الأصوات اللغوية ص٨٧.
(٣) ارتشاف الضرب ١/١٦. وانظر - كذلك -: لطائف الإشارات ١/١٨٥.
(٤) مقدمة ابن خلدون ٣/١٢٨٣.

كذلك - على ألسنة المثقفين فى مواقف الجِدّ من القول، كما أنها تجسّد الأصل السامىّ القديم، على ما يقرر الدرس اللغوى المقارن[1].

وتتميز هذه القاف بحزمة الملامح التمييزية التالية: [2]

المخرج: التقاء أقصى اللسان باللهاة (= لهوية).

الصفات: - وقفية (شديدة).

- مهموسة.

- مستعلية.

وما تزال هذه الصورة النطقية للقاف حيةً فى الكلام الدارج، فى بعض المناطق من عالمنا العربى المعاصر.

ومن ذلك: القاف الشائعة على ألسنة كلٍّ من:

أهل مدينة رشيد، وأهل البرلس وبلبيس بمصر[3].

بعض المناطق فى اليمن، ولا سيما الجنوب[4].

- قبائل الشُّحوح، وبعض أعراب إمارة رأس الخيمة والفجيرة، بدولة الإمارات العربية المتحدة[5].

(١) انظر: بروكلمان: فقه اللغات السامية ص٣٩، وبرجشتراسر: التطور النحوى للغة العربية ص٢٦، وموسكاتى: مدخل إلى نحو اللغات السامية المقارن ص٧٠، ود. رمضان عبد التواب: المدخل إلى علم اللغة ص٢٢١ - ٢٢٢.
(٢) انظر: د. أنيس: الأصوات اللغوية ص٨٧ - ٨٨، ومناهج البحث فى اللغة ص١٢٤، ودراسة الصوت اللغوى ص٣١٨، وعلم الأصوات ص٢٧٦، والمدخل إلى علم اللغة ص٥٤ - ٥٥.
Arabic phonology, P.32.
وانظر - كذلك -:
(٣) وانظر: حفنى ناصف: مميزات لغات العرب ص٣.
(٤) وانظر: علم الأصوات ص٢٨٢.
(٥) انظر: معجم الألفاظ العامية فى دولة الإمارات ص٥١٧.

Scanned with CamScanner

- قبيلة «العجمان» - بالكويت - وذلك بالإضافة إلى النطق البدوى الشائع[1].

- بعض مدن الشمال الإفريقى مثل مدينة تونس وقسنطينة..[2].

- أهل الجبال المحيطة بمدينة «تطوان» الواقعة شمال المغرب[3].

ويبدو أن هذه الصورة النطقية للقاف كانت هى الشائعة لدى قبيلة «تميم» - أو بعض فروعها - يقول ابن دريد (ت٣٢١هـ) - وتابعه ابن فارس (ت٣٩٥هـ): «فأمّا بنو تميم، فإنهم يُلحقون القاف باللهاة، فتغلظ جدًّا، فيقولون للقوم: الكوم، فتكون القاف بين الكاف والقاف، وهذه لغة معروفة فى بنى تميم. قال الشاعر:

ولا أكــول لكذر الكوم كــذ نضــجت

ولا أكــول لبــاب الدار مكفــول[4]

وقد تنلَّيتُ هذا «الشاهد» فى كثير من مصادر اللغة، عسى أن أجد فى أىٍّ منها تعليقًا على طريقة نطق «القاف» المتكررّة فيه، فلم أجد. وكان سبب تردُّده فى جمهرة هذه المصادر هو الاستشهاد على وقوع اللحن فى ألسنة بعض العامة باستبدال «غَلِبَتْ» بـ «غَلَتْ»، و«مغلوق» بـ «مُغْلَق»[5].

---

(١) انظر: شريفة المعتوق: لهجة العجمان فى الكويت: دراسة لغوية ص٥٨ - ٥٩.

(٢) انظر: دروس فى علم أصوات عربية ص١٠٩.

(٣) انظر: د. عبد المنعم سيد عبد العال: لهجة شمال المغرب ص٨١.

(٤) جمهرة اللغة ١/ ٤١-٤٢، والصاحبى ص٣٦ - ٣٧. وانظر - كذلك - البلوى: ألف باء ٢/ ٢١٧. والبيت المذكور هو لأبى الأسود الدؤلى، وهو موجود فى ملحقات ديوانه المطبوع ص١١٩، مع اختلاف فى نهايتى الشطرين: «غليت» بدلاً من «نضجت»، و«مغلوق» بدلاً من «مكفول».

(٥) انظر - مثلاً -: الكسائى: ما تلحن فيه العامة ص٢١ (ونسب فيه الشاهد خطأ إلى حاتم الطائى)، وابن السكيت: إصلاح المنطق ص١٩٠، وفصيح ثعلب ص٢٦٢، وابن دُرَسْتَوَيْه: تصحيح الفصيح ص٥٣، ١٦٦، والجوهرى: الصحاح (غلق) ٤/ ١٥٣٨، و(غلا) ٦/ ٢٤٤٨، والخطيب التبريزى: تهذيب إصلاح المنطق ص٤٥٧ - ٤٥٨، والعكبرى: المشوف المُعْلَم فى ترتيب الإصلاح على حروف المعجم ٢/ ٥٥٠، ولسان العرب (غلق) ٥/ ٣٢٨٣، و(غلا) ٥/ ٣٢٩٢، وتاج العروس (غلق) ٢٦/ ٢٥٨ - ٢٥٩ (ط. الكويت)، و(غلى) ١٠/ ٢٧٠ (ط. بولاق).

والذى أرجحه: أن هذه القاف التى أشار إليها ابن دريد - التى عزاها إلى تميم - هى نفسها قاف القرّاء المعاصرة، لا القاف البدوية (= الجيم القاهرية تقريبًا)، كما رجح بعض الباحثين[1]**، وذلك لما يلى:**

قول ابن دريد عن تلك القاف إن بنى تميم «يلحقونها باللهاة» فالقاف «اللهوية» هى قاف القرّاء المعاصرة (المستعلية)، وليست القاف البدوية؛ لأن تلك الأخيرة تنتج - كما فى النطق الشائع الآن - بالتقاء مؤخَّر اللسان فى نقطة قريبة إلى وسطه بما فوقه من الحنك اللين؛ فهى - إذن - ليست لهوية.

- أن كلام ابن دريد - وكذلك: ابن فارس - عن تلك القاف، كان فى سياق التعرّض لبعض الصور النطقية الخاصة لبعض الأصوات العربية (كالجيم غير المعطشة...). فى حين أن النطق البدوى للقاف كان - وما يزال - هو الصورة النطقية الشائعة لها فى الجزيرة العربية، وقد سبق أن أوردتُ كلام أبى حيان (ت٧٥٤هـ) وابن خلدون (ت٨٠٨هـ) بهذا الشأن.

فاختصاص الصورة النطقية التميمية بالذكر - إذن - يشير إلى قلّة شيوعها من جهة، ويرجِّح - من جهة أخرى - أن المقصود بها قافُ القرّاء المعاصرة، فهى القاف التى كانت - وما تزال - الأقلّ شيوعًا على ألسنة أهل الجزيرة العربية فى كلامهم الدارج.

- وصَفْ ابن دريد لهذه القاف بأن إلحاقها باللهاة يؤدى إلى أن «أن تغلُظ جدًّا)، يرجّح - كذلك - أنه يعنى «قاف القرّاء؛ إذ يغلب أن يكون مقصوده بالوصف بـ «الغِلَظ» هو التنويه بأن لهذه القاف «قيمة تفخيمية» ملحوظة، وهذا أكثر انطباقًا على قاف القراء؛ فإنها أكثر تفخيمًا من تلك البدوية؛ لأنها أكثر عمقًا[2].

---

(١) انظر - مثلاً -: د. مطر: خصائص اللهجة الكويتية ص٣٢-٣٣، ود. ضاحى عبد الباقى: لغة تميم ص١٠١ ١٠٢، ود. عيد الطيب: لهجات العرب وامتدادها إلى العصر الحاضر ص١٢١.

(٢) سيُفصَّل القول فى تفخيم القاف فى المبحث الثالث.

Scanned with CamScanner

ـ ما ورد من أن التميميين ـ أو أحد فروعهم ـ كانوا يقلبون السين صاداً قبل القاف ـ وكذلك قبل الخاء والغين والطاء ـ كما فى قولهم : « الصُّوق » بدلاً من « السُّوق ».

وتفسير ذلك صوتيًا ـ على ما سيُفصَّل فى المبحث الثالث ـ يشير إلى تأثر السين بالقاف مما أدّى إلى تحولها إلى نظيرها المفخم (الصاد) ؛ فالأقرب إلى إحداث هذا التأثير فى السين هو القاف المستعلية المهموسة (قاف القرّاء) : فاستعلاؤها ـ من جهة ـ يعطيها « قيمة تفخيمية » تقود إلى التأثير الرجعى فى السين « المرققة » وتحويلها إلى النظير المفخم. واتصاف هذه القاف بالهمس ـ من جهة أخرى ـ هو ما وجّه هذا التحول إلى النظير المفخَّم المهموس خاصة، وهو الصاد، دون النظير المفخَّم المجهور، وهو الزاى التى كالظاء المصرية.

فى حين أن « القاف البدوية » تعوزها (درجة) تفخيم « قاف القرّاء »، كما أنها مجهورة؛ فاحتمال أن تكون هذه البدوية ـ بأوصافها تلك ـ هى صاحبة التأثير المذكور على السين، يقلّ ـ بدرجة كبيرة ـ عن احتمال أن تكون قاف القراء المفخَّمة جزئيًا والمهموسة هى صاحبته.

ومن جهة أخرى، فإن الراجح لدى وجود استعمالات « سينية » وأخرى « زائية » مناظرة للاستعمالات « الصادية » المنسوبة إلى تميم (مثلاً: هذه الدار بـ « لِصْق » تلك، ولِسْقها ولِزْقها) ـ الراجح ـ حينئذ ـ هو أن تكون القاف التالية لهذه الاستعمالات « السينية » و« الزائية » هى القاف البدوية المجهورة والمحدودة التفخيم:

فاتصاف هذه القاف بالجهر يقف من وراء الاستعمالات الزائية؛ ليحصل التماثل فى الجهر بين القاف والزاى.

واتصافها بضآلة التفخيم قد استبقى السين قبلها فى الاستعمالات السينية، دون أن تتحول إلى صاد.

ولعلّ مما يدعم ذلك ـ أخيرًا ـ هو بقاء النطق « الصادى » على ألسنة الذين مازال

نطق القاف مستعلية مهموسة (= قاف القراء) جاريًا على ألسنتهم، فقبائل الشُّحوح الإماراتية ـ مثلاً ـ تقول ـ كما سمعتُ بنفسى ـ: « الصُّوق » بدلاً من « السُّوق ». وذلك فى مقابل النطق السينىّ الجارى على ألسنة من ينطقون بالقاف البدوية الشائعة (السُّوك) ـ بالجاف الفارسية.

١ـأ ـ ٤: القاف التى كالهمزة (?)

تُماثل هذه الصورة النطقية للقاف نطقَ صوت الهمزة (?) وتمامًا؛ وهذا يعنى أنها تتصف بالملامح التمييزية التالية[١].

المخرج: التقاء الوترين الصوتيين التقاءً محكمًا، ثم انفراجهما فجأة (مزمارية، أو وقفة حنجرية glottal Stop).

الصفات: ـ وقفية (شديدة).

ـ لا بالمجهورة ولا بالمهموسة[٢].

وتشيع هذه الصورة النطقية للقاف شيوعًا كبيرًا فى القاهرة ومدن الوجه البحرى بمصر، وفى بلاد الشام[٣] فيقال ـ مثلاً ـ:

أَلْـــبْ	بدلاً من	قَـلْـب
صَـــأر	بدلاً من	صَـقْـر
بَـــرْء	بدلاً من	بَـــرْق

(١) انظر: د. أنيس: الأصوات اللغوية ص٩٠ ـ ٩١، ودراسة الصوت اللغوى ص١٢٨ ـ ١٢٩ والمدخل إلى علم اللغة ص٥٦.

(٢) هذا هو الرأى الراجح. انظر: د. أنيس: الأصوات اللغوية ص٩١، ودراسة الصوت اللغوى ص١٢٩، وعلم الأصوات ص٢٨٨. ولم أذكر وصف الهمزة بالاستعلاء أو الاستفال؛ لأنه وصف غير ملائم لها؛ لارتباطه باللسان، ولا دخل للسان ـ أصلاً ـ فى نطق الهمزة.

(٣) انظر ليتمان: بقايا اللهجات العربية فى الأدب العربى ص٢٧، ود. أنيس: الأصوات اللغوية ص٨٧، وبحوث ومقالات فى اللغة ص١٣ ـ ١٤، ود. الخولى: الأصوات اللغوية.

Scanned with CamScanner

وقد ذهب «ليتمان» إلى أن هذه الصورة النطقية للقاف صورة معرقة فى القدَم، محتجًّا ببعض أسماء الأعلام الفينيقية[1]، كما حاول بعض الباحثين إثبات قِدَم هذه الصورة - كذلك - تأسيسًا على ما أوردته بعض كتب الإبدال من أمثلة تعاقبت فيها القاف والهمزة والمعنى واحد[2] (مثلاً: القَفْز/ الأَفْز - زُهاق مائة/ زُهاء...)، إلا أن إثبات أنّ لهذه الصورة النطقية أصلاً لهجيًا بعينه لم يُتَحْ بعد[3]، على الرغم من شهرة هذه الصورة، وكونها - لدى الناطقين بها - صورة مطلقة بحيث تُنطَق كل قاف همزةً تقريبًا.

١ - أ - ٥: القاف التى كالكاف (K)

تكاد تتطابق هذه الصورة النطقية للقاف مع نطق صوت الكاف (K). وهذا يعنى أنها تتميَّز بجملة الملامح التمييزية التالية[4]:

المخرج: التقاء مؤخَّر اللسان بما فوقه من الحنك اللين (= طبقيّة Velar).

الصفات: وقفية (شديدة).

- مهموسة.

- مستعلية.

وتتحقّق هذه الصورة النطقية للقاف فى منطاق محدودة من عالمنا العربى المعاصر، وذلك مثل:

(١) انظر: بقايا اللهجات العربية فى الأدب العربى ص٢٧.

(٢) انظر - مثلاً -: بحوث ومقالات فى اللغة ص١٢-١٣، وعلم الأصوات ص٢٨٣ - ٢٨٤، وانظر: إبدال أبى الطيب ٢/ ٥٦١-٥٦٢.

(٣) وانظر: علم الأصوات ص٢٨٦.

(٤) انظر: د. أنيس: الأصوات اللغوية ص٨٥، ومناهج البحث فى اللغة ص١٢٣-١٢٤. ودراسة الصوت اللغوى ص٣١٨، والمدخل إلى علم اللغة ص٥٣.

وانظر - كذلك

Arabic Phonology, P.32..

- نطق الفلسطينيين فى القرى، كما فى قولهم[1]:

كـــال	بدلاً من	قـــال
كـــتله	بدلاً من	قـــتله
كَـلْـبى	بدلاً من	قَـلْـبى
كَـريب	بدلاً من	قـريب
سُـــوك	بدلاً من	سُوق.... إلخ

وأما الكاف الأصلية، فتنطق - غالبًا - مثل الصوت المزدوج (ch)[2] فى أول الكلمة الإنجليزية Chidren.

- نطق البحرانيين من سكان جزيرة «سِتْرة» للقاف الموجودة فى بعض الكلمات المستحدثة، أو تلك الشائعة فى مستوى الاستعمال الفصيح؛ إذا ينطقونها كافًا مفخَّمة قليلاً، كما فى قولهم[3]:

مـجلة المواكف	بدلاً من	المـواقـف
عيد الاستكلال	بدلاً من	الاستقلال
كـــرار الوزير	بدلاً من	قـــرار
المعنى المكصود	بدلاً من	المقـصـود

وثمة أمثلة تراثية على هذه الصورة النطقية للقاف. فمن ذلك - مثلاً -:

(١) انظر: ليتمان: بقايا اللهجات العربية فى الأدب العربى ص٢٧، ودروس فى علم أصوات العر ص١١٠، ود. رمضان عبد التواب: بحوث ومقالات فى اللغة ص١٠، والتطور اللغوى: مظاهره وع وقوانينه ص٢٩.

(٢) وانظر: بقايا اللهجات العربية فى الأدب العربى ص٢٧.

(٣) انظر: د. مطر: الأصالة العربية فى لهجات الخليج ص١٤٨-١٤٩، ودراسة صوتية فى لهجة البح ص٤٥.

Scanned with CamScanner

- ذكر الجاحظ (ت٢٥٥هـ) - مما أخبر به أبو عبيدة (ت٢١٠هـ) - أن أبا مسلم الخراساني (قتل سنة ١٣٧هـ) كان يقول: «كلت لك» بدلاً من «قلت لك»[١].

- ذكر أبو حيان الأندلسي (ت٧٥٤هـ) أن بعض العرب كان يقول: «الكَمْح» بدلاً من «القَمْح»[٢].

- جاء في اللسان أن بعض العرب كان يقول: «كاتله الله» بدلاً من «قاتله»[٣].

* * *

(١) انظر: البيان والتبيّن ١/٧٣. وانظر - كذلك -: البلوى: ألف باء ٢/٢١٧.
(٢) انظر: ارتشاف الضرب ١/١٦.
(٣) انظر: اللسان (كتل) ٥/٣٨٢٢.

١.ب.١. القاف التي كالجيم الفصيحة (dz)

تماثل هذه الصورة النطقية للقاف نطق الجيم المعطّشة (الفصيحة)، وهذا يعني أنها تتميّز بجملة الملامح التمييزية التالية:

المخرج: التقاء وسط اللسان بوسط الغار (= الحنك الصلب hard palate). التقاءً محكمًا «يعقبه وقفة قصيرة، يليها تسريح بطيء، مما يُنتج صوتًا يجمع بين الانفجار والاحتكاك»[١].

الصفات: مركّبة (مَزْجية) affricate

- مجهورة.

- مستعلية.

ويشيع هذا النطق للقاف في بعض الكلمات في منطقة الخليج العربي: فمن أمثلة ذلك في اللهجة البحرانية: قولهم[٢]:

جريب (بالجيم المعطّشة)	بدلاً من	قريب
جدّام (بالجيم المعطشة)	بدلاً من	قُدّام
جربه (بالجيم المعطشة)	بدلاً من	قربه
عتيج (بالجيم المعطشة)	بدلاً من	عتيق... إلخ

(١) دراسة الصوت اللغوي ص٣١٧. وانظر - كذلك - د. أنيس: الأصوات اللغوية ص٧٧ - ٧٨، ومناهج البحث في اللغة ص١٣١ - ١٣٢، وعلم الأصوات ص٣١٠.
وانظر - كذلك -:
Arabic phonology, P.32.
وانظر - من مصادر التراث: الكتاب ٤/٤٣٣، وسر الصناعة ١/٤٧، والممتع ٢/١٦٦٩ حيث عُدّت الجيم من الأصوات الشديدة (الوقفية).
(٢) انظر: جونستون: دراسات في لهجات شرقي الجزيرة العربية ص١٠٢، ودراسة صوتية في لهجة البحرين ص٤٠، والأصالة العربية في لهجات الخليج ص١٤٧، والتطور اللغوي: مظاهره ص٢٩.

Scanned with CamScanner

ومن أمثلة فى اللهجة الكويتية: قولهم:

جليب (بالجيم المعطشة)	بدلاً من	قليب
جريب (بالجيم المعطشة)	بدلاً من	قريب
ريج (بالجيم المعطشة)	بدلاً من	ريق
طريج (بالجيم المعطشة)	بدلاً من	طريق... إلخ

ومن أمثلته فى اللهجة الإماراتية: قولهم[2]:

جاسم (بالجيم المعطشة)	بدلاً من	قاسم
الشارجه (بالجيم المعطشة)	بدلاً من	الشارقة
جليب (بالجيم المعطشة)	بدلاً من	قليب

وقد ثبت - بالدراسة - أن «القافات» التى تشتمل عليها الأمثلة السابقة - ونحوها - تكون غالبًا - مسبوقة أو متلوة بصوت لين أمامى Front Vowel قصير أو طويل[3] (كسرة قصيرة أو طويلة - فتحة مرققة...)؛ فهذا يعنى أن تلك الصورة النطقية للقاف صورة مقيدة، وليست مطلقة. مع ملاحظة أن ثمة بعض الأمثلة (القليلة) التى لم تنطق على هذا النحو، على الرغم من تحقق البيئة الصوتية المفضية إليه، ونُطقت - بدلاً من ذلك - بالنطق الشائع[4] (القاف البدوية).

١ - ب - ٢: القاف التى كالدال والزاى المركبين (دز)

تُشبه هذه الصورة النطقية الأخيرة - والأقل انتشارًا - نطقَ صوتى الدال والزاى مركَّبين (دز)؛ فهى - إذن - مزجُ صوتٍ وقفىٍ (الدال) يتلوه - تَوًا - آخر - احتكاكى (الزاى).

(١) انظر: ٥. مطر: خصائص اللهجة الكويتية ص٢٦-٢٧.

(٢) انظر: معجم الألفاظ العامية فى دولة الإمارات ص٥١٧، ٥٣٧.

(٣) انظر: دراسات فى لهجات شرقى الجزيرة العربية ص١٠٢، ١٠٧، والأصالة العربية فى لهجات الخليج ص١٥٢، وخصائص اللهجة الكويتية ص٢٦، ٢٩، ودراسة صوتية فى لهجة البحرين ص٤٨-٤٩.

(٤) انظر: دراسات فى لهجات شرقى الجزيرة العربية ص١٠٢-١٠٣.

وعلى ذلك، فإنه يُمكن تحديد الملامح التمييزية لهذه الصورة النطقية كما يلى:

المخرج: التقاء مقدَّم اللسان بلثة الثنايا العليا (= لثوية).

الصفات: مركَّبة (مَزْجية).

- مجهورة.

- مستفلة.

وتتحقق هذه الصورة النطقية فى لهجة بعض قدامى أهل الرياض ونواحيها، وذلك مثل قولهم[1]:

دْزليب	بدلاً من	قليب
دْزبله	بدلاً من	قبْلة
إبريدْز	بدلاً من	إبريق
عادْزل	بدلاً من	عاقل
عَدْزِب	بدلاً من	عَقِب... إلخ

وقد وُجد - بالدراسة - أن «قافات» الأمثلة السابقة - ونحوها - تأتى مجاورة لصوت لين أمامى[2] كما هو الشأن - تقريبًا - فى «قافات» الصورة النطقية السابقة (الجيم المعطشة)؛ وهذا يعنى أن الصورة النطقية (دْز) صورة مقيدة - كذلك - وليست مطلقة.

(١) انظر: دروس فى علم أصوات العربية ص١١١، والتطور اللغوى: مظاهره ص٥١، وبحوث ومقالات فى اللغة ص١٠، ودراسات فى لهجات شرقى الجزيرة ص٥٥، ود. حلمى أبو حسن: لهجة القصيم: دراسة لغوية ص١٥٥.

(٢) انظر: دراسات فى لهجات شرقى الجزيرة العربية ص٥٤، والتطور اللغوى: مظاهره ص٥١.

Scanned with CamScanner

١ـ ب ـ ٣: القاف التى كالغين (لا)

تشبه هذه الصورة النطقية للقاف صوت الغين (لا)؛ وهذا يعنى أنها تتسم ـ تقريبًا ـ بالملامح التمييزية التالية[١]:

المخرج: اقتراب أقصى اللسان من اللهاة ـ أو أقصى الحنك اللين ـ اقترابًا شديدًا، بحيث يحتك الهواء بهما فى نقطة اقترابهما منتجًا الصوت (الهوى/طبقىّ).

الصفات: احتكاكية (رخوة).

ـ مجهورة.

ـ مستعلية.

ولا تتحقّق هذه الصورة النطقية للقاف إلا فى مناطق محدودة من عالمنا العربى المعاصر، وتفى عدد غير كبير من الكلمات.

ومن تلك المناطق:

ـ شرق السودان وشماله: وقد لاحظ د. عابدين أن هذه النطق للقاف «يتجلّى ـ عادة ـ عندما يحكى السودانى القاف الفصيحة، كأن يتلو نصًّا فصيحًا، أو يُعبِّر بكلام فصيح»[٢] ومن أمثلة ذلك: قولهم[٣]:

الاستغلال	بدلاً من	الاستقلال
لغـــاء	بدلاً من	لقـــاء
اغتصادى	بدلاً من	اقتصادى
انتغلت	بدلاً من	انتقلت... إلخ

(١) انظر: د. أنيس: الأصوات اللغوية ص٨٨ـ٨٩، ومناهج البحث فى اللغة ص١٢٩، ودراسة الصوت اللغوى ص٣١٨، د. بشر: علم الأصوات ص٣٠٣، ود. السعران: علم اللغة ـ مقدمة ص١٤٨.، وقد ذهب د. العانى إلى أن الغين تكون لهوية بعد الضمة والفتحة قصيرتين أو طويلتين، وتكون طبقية قصيرة بعد الكسرة قصيرة أو طويلة. انظر: Arabic phonology, 34 -35 وانظر ـ من المصادر القديمة ـ: الكتاب ٤/٤٣٣، وشرا بضناعة ١/٦٢.

(٢) من أصول اللهجات العربية فى السودان ص٤٧. وانظر ـ كذلك ـ علم الأصوات ص٢٨٤.

(٣) انظر: بحوث ومقالات فى اللغة ص١٠.

ـ لهجة البحرين والكويت: حيث تتحقّق هذه الصورة النطقية للقاف فى كلمات قليلة، تتميز ـ كذلك ـ بانها تنتمى إلى مستوى الاستعمال الفصيح، أو بانها مستحدثة[١].

ومن ذلك: قول البحرانيين (من أهل جزيرة المحُرق والقرى المجاورة)[٢]:

مجلة المواغف	بدلاً من	المواقف
عيد الاستغلال	بدلاً من	الاستقلال
غـــرار الوزير	بدلاً من	قرار... إلخ

ومن ذلك أيضًا: قول الكويتيين (بنطق بين القاف والغين ـ أو بالغين)[٣]:

الغـضـاء	بدلاً من	القـضـاء
المغـررات	بدلاً من	المقـررات
اسـتغـلال	بدلاً من	استقلال... إلخ

وثمة أمثلة تراثية (محدودة) على وقوع الإبدال بين القاف والغين فى بعض الاستعمالات ـ على ما سندرس بقدر من التفصيل فى المبحث التالى ـ إلا أنه لم يثبت بعد أن ثمة أصلاً لهجيًّا بعينه لهذه الصورة النطقية الغينية[٤].

ويتضح ـ بعد ـ أن هذه الصورة الصوتية للقاف ليست صورة مطلقة عند من ينطقونها، بمعنى أنهم لا ينطقون كل قاف غينًا، بل الأمر مقيَّد بقيد ثقافى أو حضارىّ، هو أن تكون القاف صوتًا فى كلمة مستحدثة، أو يشيع تداولها فى مستوى الاستعمال الفصيح.

(١) انظر: الأصالة العربية فى لهجات الخليج ص١٤٨.

(٢) انظر: الأصالة العربية فى لهجات الخليج ص١٤٩.

(٣) انظر: د. مطر: خصائص اللهجة الكويتية ص٣٤.

(٤) وانظر: علم الأصوات ص٢٨٦.

Scanned with CamScanner

الصور النطقية للقاف فى العربية التراثية والمعاصرة			الملامح التمييزية							
			المخرج	الصفات						
				طريقة النطق			وضع الوترين الصوتيين		وضع مؤخر اللسان	
				وقفى	احتكاكى	مركب	مجهور	مهموس	لا مجهور ولا مهموس	مستفل	منتفل
صور نطقية مطلقة	القاف التى وصفها القدماء	لهوية		+	—	—	+	—	—	+	—
	القاف البدوية	طبقية		+	—	—	+	—	—	—	—
	قاف القراء	لهوية		+	—	—	+	—	—	+	—
	القاف التى كالهمزة	مزمارية		+	—	—	—	+	(١)*	+	*
	القاف التى كالكاف	طبقية		+	—	—	+	—	—	—	+
صور نطقية مقيدة	مقيدة بقيد صوتى	القاف التى كالجيم المعطشة	غارية	—	+	+	—	—	—	—	+
		القاف التى مثل (دز)	لثوية	—	+	+	—	—	—	—	+
	مقيدة بقيد ثقافى	القاف التى كالغين	لهوية	—	—	+	—	+	—	+	—

(١) يشير هذا الرمز إلى ان الصفة غير ملائمة لوصف الصوت.

١. ج. تحليل وموازنة

سبق أن ذكرتُ أن قدامانا - بدءاً من الخليل وسيبويه - قد حددوا الملامح التمييزية للقاف كما يلى:

المخرج: التقاء أقصى اللسان بما فوقه من الحنك اللين (اللهاة).

الصفات: وقفية (شديدة) + مجهورة + مستعلية.

فإذا سلَّمنا بدقة هذا التحديد، فإن أيًّا من الصور النطقية للقاف - تلك المذكورة سابقًا - لا يتطابق معه؛ لحصول تباين فى المخرج، أو فى الصفات(١):

فمما لا يتطابق مع «قاف القدماء» لوجود تباين فى المخرج:

- «القاف البدوية»؛ لأنها - كما هو النطق الشائع لها الآن - لا تخرج من أقصى اللسان، بل من ثلثه الداخلى - فهى - إذن - مستفلة وليست مستعلية.

- «القاف التى كالكاف»؛ لأنها مستفلة - كذلك - تخرج من الثلث الداخلى للسان، لا أقصاه، فضلاً عن أنها مهموسة.

- «القاف التى كالهمزة» لأنها مزمارية (أو حنجرية)، لا لهوية.

- «القاف التى كالجيم المعطشة»، وتلك التى كالدال والزاى (دْز)؛ فالأولى غارية Patatal والثانية لثوية.

ومما لا يتطابق مع «قاف القدماء» لوجود تباين فى الصفات:

«قاف القراء»؛ لأنها مهموسة، فى حين أن «قاف القدماء» مجهورة، مع اتفاقهما فى المخرج (كلاهما لهوىّ).

«القاف التى كالغين»، لأنها احتكاكية (رخوة)، فى حين أن قاف القدماء وَقْفية (شديدة)، مع اتفاقهما فى المخرج كذلك.

(١) وانظر: المختصر فى أصوات اللغة العربية ص١١٠.

Scanned with CamScanner

[illegible] ـ في هذا الصدد ـ استبعاداً تاماً القاف التي كالهمزة، والتي [illegible] كالدال والزاي (قُز)، فالأمر في استحالة كون تلك هي [illegible] القدماء بالغ الوضوح.

كما نستبعد كذلك القاف التي كالغين، وتلك التي كالكاف؛ لأن كلاً من «الغين» و«الكاف» فونيم مستقل في العربية؛ يترتب على استبدال أي منهما بالقاف حصولُ تغيُّر في المعنى (قَبل / كَبل ـ قَوْب / غَوْب ...) إلا في حالة حصول الإبدال ـ على ما سيأتي في المبحث الثاني ـ فالقول بأن «القاف» كانت تنطق «غيناً» أو «كافاً» يعني حصول «اندماج فونيمي» بين القاف والغين من هذين الصوتين، مما يعني ـ كذلك ـ فناء أحدهما، وهذا أمر غير واقع.

كما أن احتمال خلْط القدماء ـ لدى تحديد المخرج والصفات ـ بين «القاف» وأي من «الغين» و«الكاف» أمر مستبعد كذلك.

فـ«الغين» تباين «قاف القدماء» في صفة الشدة / الرخاوة («قاف القدماء شديدة والغين رخوة»، وقد كانت هذه الصفة واضحةً في أذهان جمهور القدماء لسهولة اختبار معيارها (انحباس النَّفَس لدى النطق بالصوت أو استمراره) مما يجعل الخطأ في الوصف بها احتمالاً بعيد الوقوع.

و«الكاف» تباين القاف القدماء في المخرج وفي الجَرْس (وقع الصوت على الأذن) مباينة كافية لجعل القول بخلط القدماء بينهما احتمالاً بعيد الحصول كذلك. ولا [illegible] «قاف القراء» و«القاف البدوية».

[illegible] كذلك ـ أن تكون هي المقصودة بوصف القدماء.

[illegible] لها لدى القدماء في جملة

(الجهر/الهمس) فقاف القراء مهموسة، في حين أطبق قدامانا على وصف القاف بـ«الجهر».

الثاني: ما سبق أن رجحته من أن هذه الصورة النطقية للقاف لم تكن شائعة، بل كانت خاصة بقبيلة تميم ـ أو أحد فروعها ـ ودللتُ على ذلك ـ فيما دللت ـ بأن كلام القدماء عنها ـ كابن دريد، وابن فارس ـ جاء في سياق الحديث عن بعض الصور النطقية «الخاصة» المباينة لنظائرها «الشائعة». فهذا مما يرجح ـ كذلك ـ أنها لم تكن مقصود القدماء بالوصف.

وأما «القاف البدوية»، فهي الصورة النطقية التي أرجح أنها كانت مقصود القدماء[1] ـ أو متقدميهم على الأقل ـ وذلك لأمرين، هما:

الأول: أنها كانت ـ وما تزال ـ الصورة النطقية الشائعة في شبه الجزيرة العربية.

وقد سبق أن أوردتُ كلام أبي حيان (ت٧٤٥هـ) وابن خلدون (ت٨٠٨هـ) بشأن شهرة هذه القاف البدوية وذيوعها شرقاً وغرباً، مما حدا بابن خلدون أن يؤسس على ذلك قوله: «ويظهر من ذلك أنها (أي: القاف البدوية) أمة منهم الأولى»[2]، بل يُفهم من كلامه أن هناك مَنْ كان يقرأ بها في الصلاة، ويلحن من يقرأ بغيرها[3].

فمن الراجح: إذن ـ أن تكون هذه القاف الشائعة هي القاف التي عناها القدماء بالوصف.

الثاني: أن الملامح التمييزية لهذه القاف البدوية تكاد تتطابق مع تلك التي عُنِيَها القدماء؛ فهي مجهورة وشديدة (وقفية) كما نصّ القدماء.

---

(١) انظر: دروس في علم أصوات العربية ص١٠٦، وعلم الأصوات ص١٦٨، ١٦٩؛ د. حلمي خليل: التفكير الصوتي عند الخليل ص٥٢.

(٢) مقدمة ابن خلدون ٣/ ١٢٥٣.

(٣) انظر: مقدمة ابن خلدون ٣/ ١٢٨٣ ـ ١٢٨٤.

Scanned with CamScanner

وينحصر التباين - بعد - فى المخرج، إذ حدد القدماء مخرج القاف بأنه من «أقصى اللسان مع ما فوقه من الحنك اللين»، فى حين تنتج القاف البدوية - كما نسمعها الآن فى النطق الشائع - فى نقطة قبل ذلك (الثلث الداخلى من اللسان).

ونحن - إزاء ذلك - أمام أحد احتمالين:

الاحتمال الأول: أن مفهوم «أقصى اللسان» - لدى سيبويه وجمهور من تقفّاه - كان يتسع ليشمل الثلث الداخلى منه.

وهذا الاحتمال غير بعيد، فقد جعل بعض قدامانا القاف والكاف - على ما بينهما - من «حيِّز واحد»[1]، هو - بلا شك - مؤخَّر اللسان (بما فيه أقصاه).

كما أن تحديد «أقصى اللسان» خاصة مناطًا للوصف بـ«الاستعلاء» - وهى الصفة محلّ التباين بين قاف القدماء وتلك البدوية - لم يُخصَّص على هذا النحو إلا لدى بعض المتأخرين، فى حين كان مفهوم «الاستعلاء» لدى جمهور المتقدمين يعني «ارتفاع اللسان - هكذا دون تحديد - لدى النطق بالصوت»[2].

الاحتمال الثانى: أن القاف التى وصفها سيبويه ومن تقفّاه، كانت بالفعل قافًا مستعلية - بالمفهوم الدقيق للاستعلاء - تنتج بالتقاء أقصى اللسان - لا ثلثه الداخلى - باللهاة، ثم حدث أن تطورتْ بمرور الزمن، فتقدَّم مخرجها إلى الأمام قليلاً؛ وصارت على النحو الشائع الآن[3].

وهذا الاحتمال غير مستبعد - كذلك - وقد سمعتُ - بنفسى - تلك القاف المجهورة المستعلية (= قاف القدماء) من أحد الطلاب اليمنيين، وأخبرنى بأنها شائعة فى قبيلته[4] كما تحدث كاتنينو عن لهجات تنطق القاف جافًا «خلفية جِدًّا

(١) انظر - مثلاً: تهذيب اللغة ١/٤٨، وشرح المفصل ١٠/١٢٣ - ١٢٤.
(٢) تعرضت لهذا الأمر بقدر من التفصيل فى البحث التمهيدى لدى الحديث عن صفة «الاستعلاء».
(٣) وانظر: د. أنيس: الأصوات اللغوية ص٨٦.
(٤) هو الطالب: على محمد محمد العفيرى؛ يدرس فى كلية القرآن الكريم التابعة لجامعة الأزهر بطنطا، وقبيلته هى «بَكِيل».

قريبة من اللهوية»، وذكر أن من أصحاب تلك اللهجات «قسمًا هامًا (كذا) من سكان اليمن»[1]. فلعلّه يقصد تلك القاف المجهورة المستعلية.

ويبقى - بعد ذلك - سؤال زخير، هو: إذا كانت القاف البدوية مستعلية كانت أم مستفلة) هى القاف التى وصَفها القدماء والمفترض بالتالى:

أن تكون هى الفصحية:

وأن تكون قراءة القرآن الكريم بها. فكيف صار الأمر - إذن - إلى قراءة القرآن الكريم بالقاف المهموسة، على نحو ما هو شائع الآن؟

ونقدِّم بين يدى محاولة الإجابة على هذا السؤال، بتقرير أن هذه القاف المهموسة الغالبة - الآن - على ألسنة قراءة القرآن الكريم هى قاف فصيحة كذلك؛ فلقد سبق أن رجّحت أنها كانت الصورة النطقية الشائعة للقاف لدى قبيلة تميم - أو بعض فروعها - وتميم «قاعدة من أكبر قواعد العرب» على حدّ تعبير ابن حَزْم[2] (ت٤٥٦هـ)، وحظّها من الوصف بالفصاحة بين قبائل العرب مقرَّر وموفور؛[3]، فقراءة القرآن الكريم بها - إذن - جائزة.

ثم نقول - بعد ذلك - إنه لابد أن يكون الأمر أن «القاف البدوية» و«قاف القرّاء» استُعملتا - متزامنتين - ردحًا من الزمن فى قراءة القرآن الكريم، كما تزامنتا - وما زالا - فى الاستعمال الدارج:

فأما «قاف القراء»، فالأمر فيها واضح لا يحتاج إلى برهان، إذ إن شيوعها - الآن - على ألسنة القراء يُثبت - بمعيار التواتر - أصالة استعمالها فى قراءة القرآن الكريم.

وأما «القاف البدوية»، فممّا يُدلّ على أنها كانت تُوظَّف - كذلك - فى قراءة القرآن الكريم: ما ذكره ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) عن فقهاء أهل البيت من أنهم

(١) دروس فى علم أصوات العربية ص١١٠.
(٢) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص٢٠٧.
(٣) انظر فى تفصيل القول فى ذلك: لغة تميم ص٥٨ - ٦٣، ولهجة تميم ص١٦ - ١٧، ص٥٤ - ٦٨.

Scanned with CamScanner

«زعموا أنّ مَنْ قرأ فى أم الكتاب: اهدنا الصراط المستقيم بغير القاف التى لهذا الجيل (يقصد: القاف البدوية) فقد لحَنَ وأفسد صلاتَه»[1].

فهذا النَّصّ يشير إلى أن «القاف البدوية» كانت توظَّف - بالفعل - فى قراءة القرآن الكريم؛ وهذا مما يُثبت أصالتَها فى هذا المجال احتكامًا إلى معيار «التواتر» أيضًا.

بل يُشير النَّص - كذلك - إلى أن هناك من كان «يتعصّب» لاستعمال هذه «القاف البدوية» فى قراءة القرآن الكريم، إلى حَدّ «الزعم» بأن النطق بغيرها - والمقصود طبعًا هو قاف القراء المهموسة - يُعَدّ ضربًا من «اللحن» المفضى إلى «إفساد الصلاة».

وإزاء هذا «التعصُّب» لاستعمال «القاف البدوية» - دون قاف القرّاء المعاصرة - فى قراءة القرآن الكريم، وُجِد من يقول بنقيض ذلك تمامًا؛ فالقَسْطَلاّنى (ت٩٢٣هـ) يذكر أن شيوع القاف البدوية على ألسنة أهل البوادى قد أدَّى أن «توهّم بعضُهم أن العرب كانوا يقرأون بها (أى: بالقاف البدوية)، لكن الظاهر أن القرآن لم يُقرأ إلا بالقاف الخالصة (= قاف القراء المعاصرة)، على ما نَقَلَه الأثباتُ متواترًا، ولو قُرِئَ بالمعقودة (يقصد: القاف البدوية) لنُقِل ذلك كما نُقِل غيره، ولما لم يُنْقَلْ دلّ على أنه لم يُقْرأ بها»[2].

نخلص من ذلك - إذن - إلى ما سبق أن رجّحته من تزامن استعمال القافين: البدوية وقاف القراء المعاصرة فى قراءة القرآن الكريم[3] والراجح أنه كان لكل من

(١) مقدمة ابن خلدون ٣/١٢٨٣ - ١٢٨٤. والمقصود بـ«الجيل» قبائل البدو. وقد ذكر د/ صاحى عبد الباقى أن إمامًا حضرميًّا لأحد مساجد حمة (عام ١٩٧٤ - ١٩٧٥) كان يلتزم بالقاف البدوية فى قراءته، وعلّق د. صاحى على ذلك بقوله: «لفعله شيعى». انظر: لغة تميم ص١٠٣.

(٢) لطائف الإشارات ١/١٥٨.

(٣) وانظر: د. أنيس: الأصوات اللغوية ص٨٧، وعلم الأصوات ص٢٨١ - ٢٨٣.

ويبقى بعد ذلك البحث عمّا أدّى إلى غلبة قاف القراء المعاصرة تمامًا، وتاريخ حصول ذلك، وهو أمر يحتاج إلى مزيد بحث، وإلى عمل مستقلّ يُفرَد له.

١-د- التفسير الصوتى لصور القاف النطقية:

إذ سلمنا بما قرره الدرس اللغوى المقارن من أن قاف القراء المهموسة (q) تجسِّد الأصل السامى القديم لفونيم القاف، فإنه يمكن تفسير ما آل إليه هذا الصوت من صور نطقية متعددة Allophones فى ضوء القول - ترجيحًا[1] بتعرضه لنوعين أساسيين من التغير: تغيُّر تعلّق بمخرجه، وآخر تعلّق بصفاته.

فأما التغير فى المخرج، فيحصل - عمومًا - «بأحد طريقين: إما بانتقال المخرج إلى الوراء، أو إلى الأمام، باحثًا الصوت فى انتقاله عن أقرب الأصوات شبهًا به من الناحية الصوتية»[2].

وفى ضوء ذلك، يمكننا القول - ترجيحًا - بأن صوت القاف قد شهد انتقالين مخرجيين أساسيين: أحدهما للأمام، والآخر للخلف:

فانتقال القاف إلى الأمام قليلاً قد أنتج صورته النطقية التى تُشبه الكاف؛ إذ لا فرق بين قاف القراء المعاصرة (= الأصل القديم) والكاف، إلا أن تلك القاف أعمق قليلاً (= مستعلية)، مع اتفاقهما فى صفة الهمس.

وأما انتقال القاف إلى الخلف، فقد أنتج صورته النطقية المماثلة للهمزة، «فتعمُّق القاف فى الحَلْق عند المصريين لا يصادف من أصوات الحَلْق ما يُشبه القاف إلا الهمزة؛ لوجود صفة الشدّة فى كلّ منهما؛ فليس غريبًا - إذن - أن تطورت القاف فى لغة الكلام عندنا إلى همزة، فليس بين أصوات الحق صوت شديد إلا الهمزة»[3].

(١) تتميز التفسيرات والعلل الصوتية بأنها - فى مجملها - ترجيحية «فإننا لا نعلم عِلَلَ تغيرات النطق علمًا بيِّنًا يقينًا إلا فى قليل من الحالات» على حد قول برجشتراسر (التطور النحوى للغة العربية ص٢٧).

(٢) د. أنيس: الأصوات اللغوية ص٨٧.

(٣) د. أنيس: الأصوات اللغوية ص٨٧. وانظر - كذلك - ممن تبنوا هذا التفسير: د. رمضان عبد التواب: بحوث ومقالات فى اللغة ص١٢.

Scanned with CamScanner

وقد عزا «برجشتراسر» السبب فى التحوّل من النطق بالقاف إلى النطق الهمزة إلى علّة حضارية هى «ذوق العصر»، ذاهبًا إلى أن أهل القاهرة قد «استخشنوا» صوت القاف، و«استغلظوه» فاستبدلوا به الهمزة[1] كما ذهب «كانتينو» إلى أن اللهجات التى شاع فيها نطق القاف همزة تتميز بأنها «لهجات مدنية فى أكثرها»[2].

وقد يُعترض على ذلك - لا سيما كلام برجشتراسر - بما هو مقرَّر فى الدرس الصوتى المعاصر من أن الهمزة هى «أشقّ الأصوات»[3]؛ لما تتطلبه - لدى نطقها - من انضغاط الوترين الصوتيين انضغاطًا ثم انفراجهما. وقد كان هذا مما أدّى إلى سقوطها من معظم اللهجات العربية المعاصرة (وبعض اللهجات القديمة)، فالقول بـ«استخشان» القاهريين لصوت القاف، و«استغلاظهم» إياه، لا يسوغ معه استبدال صوت كالهمزة به.

وأما التغير الذى يتعلق بالصفات، فيتمثّل فى فقدان قاف القراء المعاصرة (= الأصل القديم) لصفة الجهر، مما أدّى إلى تولُّد الصورة النطقية المجهورة للقاف ممثَّلة فى القاف البدوية[4]:

- مع عدم حدوث تغيُّر فى المخرج - تقريبًا - إذا سلَّمْنا بأن القاف البدوية كانت مستعلية.

- ومع تزحزح محدود إلى الأمام إذا سلمنا بأن النطق البدوى المعاصر يمثل القاف البدوية.

هذا مع اتفاق قاف القرّاء وتلك البدوية فى أن كليهما وَقْفى (شديد).

ومن هذه القاف البدوية المجهورة التى شاعت لدى العرب شيوعًا، تولدت:

(١) انظر: التطور النحوى للغة العربية ص٢٨.
(٢) دروس فى علم أصوات العربية ص١٠٩.
(٣) انظر - مثلاً: د. أنيس: الأصوات اللغوية ص٩١، والتطور اللغوى: مظاهره ص٧٦.
(٤) وانظر: التطور النحوى للغة العربية ص٢٦، ود. أنيس: الأصوات اللغوية ص٢٠٩.

ترجيحًا - الصور النطقية الأخري للقاف بحصول تغير فى الصفة، أو فى المخرج:

فالتغير فى صفة «الشدّة» ولَّد القاف التي كالغين؛ إذ لا فرق بين القاف البدوية - خاصة تلك المستعلية - وبين الغين، سوى فى أن القاف البدوية وقفية (شديدة)، وأن الغين احتكاكية (رخوة).

والتغير فى المخرج بالانتقال إلى الأمام قد ولّد الصورتين النُّطقيتين الأخيرتين للقاف: تلك التى كالجيم المعطشة، والأخرى التى كالدال والزاى (دْز).

وقد سبق أن ذكرتُ أن هاتين الصورتين النطقيتين مقيدتان بقيد صوتى موقعى، هو «مجاورة صوت لين أمامى»؛ وهذا ما يُمكِّن من تقديم تفسير صوتى لوجودهما:

فالدرس الصوتي المعاصر يقرر أن للصوائت تأثيرًا - بالتقديم أو بالتأخير - على مخارج الصوامت المجاورة لها، فالصوائت الأمامية - مثلاً - تجذب مخارج الصوامت السابقة لها إلى الأمام قليلاً[1]. وقد توصَّل علماء الدرس اللغوى المقارن - بهذا الصدد - إلى ما سمَّوه بـ (قانون) الأصوات الحنكية Palatal Law؛ حيث لاحظوا - من خلال دراستهم للأصول الإغريقية واللاتينية لبعض الألفاظ الأوربية الحديثة - «أن أصوات أقصى الحنك، كالكاف والجيم الخالية من التعطيش (كالقاف البدوية) تميل بمخرجها إلى نظائرها من الأصوات الأمامية حين تليها فى النطق حركة أماميّة كالكسرة؛ لأن هذه الحركة الأمامية - فى مثل هذه الحالة - تجتذب إلى الأمام قليلاً أصوات أقصى الحنك، فتنقلب إلى نظائرها من أصوات وسط الحنك، ويغلب أن تكون هذه الأصوات الجديدة من النوع المزدوج، أى: الجامع بين الشدة والرخاوة»[2].

(١) وانظر - فى تفصيل ذلك: د. الخولى: الأصوات اللغوية ص٢١٢ - ٢١٤.
(٢) التطور اللغوى: مظاهره ص١٣٢. وانظر - كذلك: الأصالة العربية فى لهجات الخليج ص١٥٢. وانظر - فى تفسير تولُّد الجيم الفصيحة المعطَّشة من الجيم القاهرية فى ضوء ذلك القانون: د. أنيس: الأصوات اللغوية ص٨٠ - ٨٤. وانظر أمثلة لذلك من اللغات الأوربية فى: ماريوباى: أسس علم اللغة ص١٤٤ - ١٤٥.

Scanned with CamScanner

فهذا - إذن - يفسِّر لنا نشأة الصورتين النطقيتين الأخيرتين للقاف؛ إذ تنطبق عليهما شروط تطبيق هذا (القانون)؛ من حيث تولدهما من أحد أصوات أقصى الحنك، ومن حيث ارتباطهما - غالبًا - بمجاورة صوت لين أمامىّ.

وأشير - أخيراً - إلى أننى **قد تبنيتُ هذا «التفسير الترجيحىّ المركَّب» لتوالد الصور النطقية للقاف، على أساس أن الأقرب - لدى تغير صوت إلى آخر - هو أن يكون التباين بينهما محصوراً فى فرق واحد - أو كالواحد: المخرج، أو الصفة.**

وعلى ذلك، فلقد رجحتُ - مثلاً - أن تغيُّر قاف القراءة المهموسة (= الأصل القديم) إلى «غين» لم يحدث مباشرة؛ وذلك لتباينهما فى صفة الجهر وفى صفة الشدة كذلك، بل رجحتُ أن تكون الصورة الغينية قد تولدت من تلك البدوية المجهورة مثلها، والمباينة لها فى صفة الشدَّة فحسب... إلخ.

•••

٢. إبدال القاف

يعرف الإبدال بأنه: جَعْل حرف مكان آخر[١].

ويقسَّم الإبدال: عادة إلى: إبدال صرفى، وآخر لغوىّ. فأما «الصرفى»، فيختص بحروف معينة، ويتميز - فى مجمله - بالاطّراد أو القياسيّة (مثلاً: إذا تحرّكت الواو، وانفتح ما قبلها، قُلبت ألفًا...).

وأما «**الإبدال اللغوىّ**» فلا يختص بحروف معيَّنة، كما أنه غير مُطّرد؛ ولذا فهو أعمّ من نظيره الصرفى، وذلك كقولهم: مدح ومده، والجَدف والجدَث للقبر، وغير ذلك[٢].

ومن جهة أخرى: فإن ثمة فرقًا بين الإبدال اللغوى، وبين الصور النطقية التى عرضنا لها فى المبحث السابق: فهذه الأخيرة تتميز فى تحقُّقها بالاطّراد: اطرادًا مطلقًا، أو اطّرادًا مقيَّدًا بقيد خاص، على نحو ما فُصِّل من قبل. وأما الإبدال اللغوىّ، فلا تتميز أمثلته بهذا الأطّراد، بل هى أمثلة «اتفاقية» محدّدة بعينها، و«لاقانون لحصولها» على حد قول «برجشتراسر»[٣].

وقد اهتمّ قدامى اللغويين العرب بظاهرة «الإبدال اللغوىّ»: فأفردها بعضهم بمصنَّفات مستقلّة، كما فعل ابن السِّكِّيت[٤] (ت٢٤٤هـ)، والزَّجّاجى[٥] (ت٣٣٧هـ)، وأبو الطيب اللغوىّ[٦] (ت٣٥١هـ). وأفرد آخرون لها - أو لأمثلتها - مطالبَ أو فصولاً فى أثناء مؤلَّفاتهم، كما فعل القالى[٧] .....

(١) انظر: الجرجانى: التعريفات ص٢١، والمُناوى: التوقيف على مهمات التعاريف ص٢٩.
(٢) وانظر فى تفصيل القول فى ذلك: د. البواب: ظاهرة الإبدال اللغوىّ ص١٥-٢٦.
(٣) التطور النحوى للغة العربية ص٢٧.
(٤) وذلك: كتابه: الإبدال.
(٥) وذلك: كتابه: الإبدال والمعاقبة والنظائر..
(٦) وذلك: كتابه: الإبدال.
(٧) انظر بعض «المطالب» فى كتابه: «الأمالى»، كما فى الصفحات التالية: ٢/٦٨، ٧٨، ٩٧، ١١٢، ١١٣، ١١٤ وغيرها.

Scanned with CamScanner

(٣٥٦هـ) وابن سيده[١] (ت٤٥٨هـ) وغيرهما[٢].

وقد تباين موقفهم من شروط القول بوقوع الإبدال: فذهب فريق منهم - وعلى رأسه ابن جنى (ت٣٩٢هـ) - إلى اشتراط وجود علاقة صوتية (اتحاد المخرج أو تقاربه) بين الصوتين: المبدل والمبدل منه. فى حين لم يشترط اخرون - كأبى الطيب اللغوى (ت٣٥١هـ) - ذلك، كما يتبدّى فيما أوردوه على أنه أمثلة لهذه الظاهرة.

كما أخرج فريق منهم - كابن جنى - من دائرة الإبدال تلك الأمثلة التى ورد كل منها منسوبًا إلى لهجة بعينها[٣].

وأمّا المحدثون، فيلخّص موقفَهم قولُ العلاّمة الدكتور إبراهيم أنيس - رحمه الله -: «حين نستعرض تلك الكلمات التي فُسِّرت على أنها من الإبدال حينًا، أو من تباين اللهجات حينًا آخر، لا نشكّ لحظة فى أنها جميعًا نتيجة التطور الصوتى. أى أن الكلمة ذات المعنى الواحد، حين تروي لها المعاجم صورتين أو نطقين، ويكون الاختلاف بين الصورتين لا يجاوز حرفًا من حروفها، نستطيع أن نفسِّرها على أن إحدى الصورتين هى الأصل، والأخرى فرع لها، أو تطوُّر عنها، غير أنه فى كل حالة يُشترط أن نلحظ العلاقة الصوتية بين الحرفين: المبدل والمبدل منه[٤].

فهذا يعني أن ثمة شرطين أساسيين - لدى المحدثين - للقول بحصول الإبدال[٥]:

- وجود علاقة صوتية (اتحاد المخرج أو تقاربه) بين الصوتين - أو الأصوات - المظنون حصول الإبدال بينها.

(١) انظر: كتابه: المخصص ١٣/٢٧٤-٢٧٨.
(٢) وانظر فى تفصيل القول فى ذلك: د. البواب: ظاهرة الإبدال اللغوى ص٢٦-٣٠، ود. عبد الله بو خلخال: ظاهرة الإبدال عند اللغويين والنحاة العرب ص٣٨-٤٣.
(٣) انظر فى تفصيل القول فى ذلك: ظاهرة الإبدال اللغوى ص٣٧-٤٤.
(٤) من أسرار اللغة ص٧٥.
(٥) وانظر فى تفصيل القول فى ذلك: ظاهرة الإبدال اللغوى ص٣٩-٤١، وظاهرة الإبدال عند اللغويين والنحاة العرب ص٤٤-٤٥.

- الاتفاق فى المعنى بين الاستعمالين - أو الاستعمالات - المشتملة على هذه الأصوات.

ولابُهِمّ - بعد - أن يكون الاستعمالان منسوبين إلى لهجتين مختلفتين، أو أن يكون أحدُهما فقط هو المنسوب، أو أن يكونا - جميعًا - بلا نسبة[١].

وأما معايير ترجيح «الأصالة» و«الفرعية» بين الاستعمالات (المبدلة) - وبالتالى أصواتها - حين تستوفى شروط القول بحصول الإبدال، فيمكن إيجازها - لدى المحدثين - فيما يلى[٢]:

- ورود أحدها - دون الأُخَر - فى نصوص قديمة يرجِّح أصالتَه.

- نسبة الشيوع؛ فكثرة الشواهد الخاصة بأحد الاستعمالات ترجِّح أصالتَه. وقد اهتمّ ابن جنى (ت٣٩٢هـ) اهتمامًا خاصًا بأحد مظاهر هذا المعيار، وهو وفرة التصرف، فالاستعمال الأعمّ تصرُّفًا (= الأوفر مشتقات مثلاً...) تَرجُح أصالتُه[٣].

(قوانين) التغير الصوتى، فالصوت الأصعب فونيميًا يتغيَّر - عادةً - نحو الأيسر، وبالتالى: تُرجح أصالة الاستعمال المشتمل على هذا الأصعب[٤].

وأضيف إلى ما سبق معيارًا مهمًّا - بل لعلّه من أهمها - وهو «المعيار الدلالى» الذى يمكن بيانه إجرائيًا كما يلى:

- تحييد «المعنى المتجاذَب»، ذلك الذى تأسّس عليه القول بحصول الإبدال بين استعمالين، أو أكثر.

- النَّظر فى معانى باقى استعمالات الجذرين اللذين ينحدر منهما هذان

(١) وانظر فى تفصيل القول فى هذا التقسيم للأمثلة المبدلة: من أسرار اللغة ص٧٥-٨٠.
(٢) انظر: من أسرار اللغة ص٧٧-٧٩. وانظر فى تفصيل القول فى ذلك: ظاهرة الإبدال اللغوى ص٤٥-٤٩.
(٣) انظر - مثلاً: سرّ الصناعة ١/٢٢٨.
(٤) وانظر: دراسة الصوت اللغوى ص٢٩٣.

Scanned with CamScanner

الاستعمالان، بحيث يتأسّس على ذلك ترجيح أصالة الاستعمال الذى تتشابه معانى استعمالات جذره مع هذا المعنى المتجاذَب.

ويتأسّس هذا المعيار على ما هو مقرَّر - فى العربية - من وجود وشيجة دلالية بين استعمالات الجذر الواحد، بحيث تكون هناك دلالة محوريَّة تتحقق - بشكلٍ ما - فى كل استعمالات الجذر. وهذا هو الأساس الذى بنى عليه ابن فارس (ت٣٩٥هـ) معجمه «مقاييس اللغة»، وعالج - فى ضوئه - جذور اللغة الثلاثية.

فإذا ما انتقلنا - بعد - إلى فحص ما أوردته كتب الإبدال على أنه أمثلة لحصول الإبدال بين القاف وأصوات أخرى، فإننا يمكن أن نقسّم هذه الأمثلة إلى قسمين متميّزين:

- قسم تتحقق فى أمثلته العلاقة الصوتية.

- قسم لا تتحقق فى أمثلته هذه العلاقة.

* * *

١ - أ - أمثلة تتحقق فيها العلاقة الصوتية:

هذا القسم من أمثلة إبدال القاف هو القسم الجدير بالدخول فى دائرة «الإبدال»، على ما شَرَط المحدثون وبعض القدامى، وهو ما أميل إليه كذلك.

وينهض هذا القسم - فى معظمه - على أمثلة تتناظر فيها القاف مع الكاف أوّلاً، ثم مع الغين ثانيًا[١].

وقد أفرد ابن السِّكِّيت[٢] (ت٢٤٤هـ) بابًا لإبدال القاف والكاف، وكذا فعَل الزَّجّاجى[٣] (ت٣٣٧هـ)، وأبو الطيب اللغوى[٤] (ت٣٥١هـ). كما أفرد أبو الطيب اللغوى بابًا - كذلك - لإبدال الغين والقاف[٥].

(١) سبق التنويه بالعلاقة الصوتية الوثيقة بين القاف وكل من الكاف والغين فى المبحث الأول لدى الحديث عن التفسير الصوتى لصور القاف العتيقة.

(٢) انظر: كتابه: الإبدال ص١١٣ - ١١٤.

(٣) انظر: كتابه: الإبدال والمعاقبة والنظائر ص٧٧ - ٨٢.

(٤) انظر: كتابه: الإبدال ٢/٣٥٣ - ٣٦٤.

(٥) انظر: الإبدال ٢/٣٢٨ - ٣٢٩.

وتأسيسًا على ما سَبَق ذكره من معايير ترجيح «الأصالة» و«الفرعية» فى المبدلات - وعلى رأسها المعيار الدلالى - يمكننا أن نفحص بعضًا مما أوردته كتب الإبدال على أنه أمثلة لحصول الإبدال بين القاف والكاف وبين القاف والغين:

فمّما ورد من ذلك بين القاف والكاف: أزواج الاستعمالات الآتية:

(قحّ - كحّ):

قال ابن السِّكِّيت (ت٢٤٤هـ): «قال أبو عمرو الشيبانى: يقال: هو عربىّ كُحّ.. أبو زيد: يقال: أعرابى قُحّ، وأعراب أقحاح، أى: مَحْض خالص»[١].

والبحث يثبت أن الدلالة على «المحوض والخلوص» أصيلة فى استعمالات «قح»، كقولهم - فضلاً عن الاستعمال المذكور:

- «لئيم قُحّ»: إذا كان مُعرِقًا فى اللُّؤْم.

- «عَبْد قُحّ»: إذا كان خالص العبودة...[٢] إلخ.

فى حين لم يرد فى «كح» إلا الاستعمال المذكور تقريبًا[٣]، فـ«قُح» - إذن - أعمّ تصرُّفًا، وأوفر استعمالات، فضلاً عن أصالة المعنى المشترك فيه.

وقد اعتبر ابن جنى (ت٣٩٢هـ) معيار «مقدار التصرف» فحسب، ورجّح - على أساسه - أصالة القُحّ، قائلاً: «فينبغى أن تكون الكاف فى كُحّ بدلاً من قاف قُحّ؛ لأن أبا زيد حَكَى فى جمعه: أَقْحاح، ولم نسمعهم قالوا: أكحاح»[٤].

(١) الإبدال ص١١٣. وانظر - كذلك -: إبدال أبى الطيب ٢/٣٥٧، وأمالى القالى ٢/١٣٩، وسر الصناعة ١/٢٧٩، والمخصص ١٣/٢٧٧، والمساعد على تسهيل الفوائد ٤/٢٢٩ - ٢٣٠، وشفاء العليل فى إيضاح التسهيل ٣/١١١٣.

(٢) انظر: (قحح) فى اللسان ٥/٣٥٣٥، والتاج ٧/٣٧.

(٣) انظر: (كحح) فى اللسان ٥/٣٨٣١، والتاج ٧/٦٩ - ٧٠.

(٤) سر الصناعة ١/٢٧٩. وما ذكره عن أبى زيد الأنصارى أورده ابن السكيت - على ما مرّ - فى النص المقتبس من كتابه: الإبدال.

Scanned with CamScanner

(امتق - امتك):

قال ابن السِّكِّيت (ت٢٤٤هـ): «ويقال للصبيّ والسَّخْلَة: امتكّ ما فى ضَرْع أمِّه، وامتَقّ ما فى ضَرْع أمه: إذا شربه كلَّه»[١].

فاستقراء استعمالات كلٍّ من الجذرين - وكلاهما وافر الاستعمالات والشواهد - يقود إلى ترجيح أصالة هذا المعنى المتجاذَب «الاستقصاء فى الشُّرْب أو المصّ) فى «مكّ»؛ إذ تدور حوله جُلّ استعمالاته، كقولهم - فضلاً عن الاستعمال المذكور:

- «امتكّ العَظْم»: امتصّ ما فيه من المُخّ.

- التسمية بـ «مكّة»: إمّا لأنهم كانوا يمتكون الماءَ فيها لقلّته، وإمّا لأنها كانت تَمُكّ (تُفنى) مَنْ ظَلَم فيها وألحد[٢].

وأما «متّ»، فيبدو معنى «الاستقصاء فى المص» غريبًا عليه؛ إذ تدور جُلّ استعمالاته حول معنى «الطول - أو الاتساع - الزائد»[٣]، كقولهم[٤]:

- «وجه أَمَتّ»: طويل كوجه الجرادة.

- «حِصْن أَمَتّ»: واسع.. إلخ.

وإلى مِثْل هذا، أشار ابن جنى بقوله: فى سياق ترجيحه لأصالة مكّ دون متّ فى التعبير عن الاستقصاء فى المص: «... وكذلك قولهم للرجل الطويل: أَمَتّ، لا نسبة بينه وبين امتَقّ فى المعنى»[٥].

(قتال - كتال):

قال أبو الطيب: «يقال: ناقة ذات قَتال وكَتال: إذا كانت غليظة كثيرة اللحم»[٦].

(١) الإبدال ص١١٣. وانظر - كذلك - إبدال أبى الطيب ٢/٣٥٥، وأمالى القالى ٢/١٣٩، وسر الصناعة ١/٢٧٧ - ٢٧٨، والمخصص ١٣/٢٧٧.
(٢) انظر: اللسان (مكك) ٦/٤٢٤٨. وانظر - كذلك -: سر الصناعة ١/٢٧٧ - ٢٧٨.
(٣) وانظر: المقاييس (مق) ٥/٢٧٤.
(٤) انظر: اللسان (مقق) ٦/٤٢٤٤.
(٥) سر الصناعة ١/٢٧٨.
(٦) الإبدال ٢/٣٦٠.

فهذا المعنى المشترك (الغِلَظ وكثرة اللحم) آصل فى «كتل»، وألبق بدلالات استعمالاته التي تدور فى مجملها على «التجمع والتكتّل» كقولهم:

- «الكُتْلَة» للقطعة من الطين، واللحم، والصَّمْغ[١].

فى حين يبدو هذا المعني المشترك غريبًا على «قتل» الذى تدور مجمل استعمالاته على معنى القتل المعروف: بصورته الحقيقة أو المجازية[٢] وقد قرر ابن فارس (ت٣٩٥هـ) - من قبل - حصول هذا الإبدال، فقال: «...يقال: ناقة ذات قَتال: إذا كانت وثيقة. وقال بعض أهل العلم: هذا إبدال، والأصل: الكَتال، وهو يدلّ على تجمُّع الجسم، يقال: تكتَّل الشيءُ: إذا تَجَمَّع، وهذا وجه جيِّد»[٣].

(قهد - كهد):

قال الزجاجّى (ت٣٣٧هـ): «ويقالك نعجة قَهْدة، وكَهْدة فى لونها»[٤].

فالدلالة على «اللون» أصيلة فى «قهد» - دون كهد - إذ تدور حولها جُلّ استعمالاته[٥] وذلك كقولهم:.

- «القَهْد» للأبيض من أولاد الظباء والبقر[٦].

وأما «كهد»، فتبدو الدلالة على «اللون» غريبة عليه؛ إذ تدور جُلّ استعمالاته حول معنى «الحركة المتردّدة»[٧]، كما فى قولهم:

- «شيخ كَوْهَد»: إذا كان يُرْعَش من الكِبَر.

- «اكْوَهَدّ الفَرْخُ»: إذا تحرك - مرتعداً - إلى أمه: لَتَزُقَّه[٨].

(١) انظر: اللسان (كتل) ٥/٣٨٢٢.
(٢) انظرك المقاييس (قتل) ٥/٥٦.
(٣) المقاييس (قتل) ٥/٥٧.
(٤) الإبدال والمعاقبة والنظائر ص٧٨.
(٥) وانظر: المقاييس (قهد) ٥/٣٥
(٦) انظر: (قهد) فى اللسان ٥/٣٥٦٤، والتاج ٩/٨٢.
(٧) وانظر: المقاييس (كهد) ٥/١٤٣.
(٨) انظر: (كهد) فى الصحاح ٢/٥٣٣، واللسان ٥/٣٩٤٥، والتاج ٩/١٢١-١٢٢.

Scanned with CamScanner

فالدلالة على «الحَدْو» أصيلة فى «سوق»؛ إذ تدور حولها مجملُ استعمالاته كقولهم - فضلاً عن الاستعمال المذكور:

- «السُّوق» لموضع البياعات[1]؛ وذلك «لما يُساق إليها من كل شىء»[2].

- و«الساق»: ساق الإنسان وغيره؛ «لأن الماشى ينساق عليها»[3].

فى حين يبدو معنى «الحدْو» غريبًا على استعمالات «سوك» (ساك الشىء دلكه، والسُّواك: ما يُدلَك به الفم من العيدان...)[4].

ومما ورد من أمثلة لحصول الإبدال بين القاف والغين: ما يلى:

(أقلف-أغلف)

قال أبو الطيب: «غلام أغْلَف وأقْلَف: إذا لم يُختَن، واسم الذى يقطعه منه الحاتن: الغُلْفة والقُلْفَة»[5].

والذى أرجحه أن المعنى المتجاذَب - هاهنا - أقرب إلى استعمالات «قلف»؛ إذ يدور جُلّها حول «القشرة التى تَغشى الشىء (وكَشْطها)»،[6] كقولهم:

- «القِلْف» لقِشر الرُّمّان.

- و«قَلَف الشجرة»: إذا نزع عنها لِحَاءها[7].

- ومن ذلك: الاستعمال المذكور فى نص أبى الطيب، وهو «القُلْفَة»، بمعنى: «جِلْدة الذَّكَر التى أُلبِسَتْها الحَشَفة... وقَلَفها الحَاتِن: قَطعها»[8].

(١) انظر: اللسان (سوق) ٣/٢١٥٤.
(٢) انظر: المقاييس (سوق) ٣/١١٧.
(٣) المقاييس (سوق) ٣/١١٧.
(٤) انظر: اللسان (سوك) ٣/٢١٥٦.
(٥) الإبدال: ٢/٢٣٨.
(٦) وانظر: المقاييس (قلف): ٥/٢٣.
(٧) انظر (قلف): فى المقاييس ٥/٢٣، واللسان ٥/٣٧٢٥.
(٨) اللسان ٥/٣٧٢٥.

وأما «غلف»، فتدور جُلّ استعمالاته حول معنى «غشاوة شىء لآخر»[1]، كـ «غلاف» السيف، والسكين، والقارورة[2].

وعلى الرغم من أن «جِلْدَة الذَّكَر» الموصوفة تُشبه أن تكون «غلافًا»، فإن الأليق هو أن تكون تسميتها (الحقيقية) هى «القُلْفة»، لا «الغُلْفة»؛ لأن «القُلْفة» تكون «قشرة» للشىء، أى أنها تكون من نفس جنسه - وكذلك هذه الجِلْدة - وأما «الغِلاف»، فهو مجرّد ساتر، وليس من شَرْطه أن يكون من جنس ما يستره.

(قمز-غمز):

قال أبو الطيب: «الغَمَز من الناس والقَمَز: الرُّذَال ومَنْ لا خير فيه، وكذلك من المال»[3].

فاستقراء استعمالات الجذرين (قمز - غمز) يقود إلى ترجيح أن المعنى المتجاذَب - هنا - أقمن بالانتساب إلى «قمز»؛ إذ تدور جُلّ استعمالاته فى فلك الدلالة على «الضآلة» أو «التجمعات الضئيلة»، كقولهم:

- «رأيت الكلأ قُمَزًا قُمَزًا»، أى: متفرِّقًا: لُمعة هنا، وأخرى هناك

- و«القُمْزَة»: بُرْعوم النبت الذى تكون فيه الحَبّة، وهى - كذلك - القبضة من التمر، والحصى، والتراب[4].

ومن هنا، جاء الوصف بـ «القَمَز» بمعنى: الرُّذَال من الناس والمال (= الإبل)؛ إذ المقصود بـ «الرُّذولة» - غالبًا - هو الوصف بـ «ضآلة الجثة» وقِلّة الغَناء؛[5] فهذه ضآلة حسيَّة ربما تقود - كذلك - إلى ضآلة معنوية؛ والدلالة على الضآلة هى من صميم دلالات استعمالات «قمز»، كما بُيِّن.

(١) انظر: المقاييس (غلف): ٤/٣٩٠.
(٢) انظر: اللسان (غلف) ٥/٣٢٨٢.
(٣) الإبدال: ٢/٣٢٨.
(٤) انظر: (قمز) فى اللسان: ٥/٣٧٣٧، والتاج: ١٥/٢٨٩-٢٩٠.
(٥) وانظر: اللسان (رذل): ٣/١٦٣٢-١٦٣٣.

Scanned with CamScanner

وأما «غمز»، فتدور جُلّ استعمالاته حول معنى «النَّخس أو الضغط»[1]. كما في قولهم:

- «غَمزَ الناقة»: إذا وضَعَ يدَه على ظهرها، لينظر أبها شحم أم لا.

- «غَمَزَت المرأةُ ضفائر شعرها»: إذا كبستها باليد (عند الغسل)[2].

فليس في استعمالات «غمز» ما يُدلّ على الضآلة الحسيَّة، وإنما فيها ما يُدلّ على حصول عَيْب «يُنخَس» به المغموز، وهذا هو قولهم: «ليس في فلان مَغْمَز»، أي: ليس فيه «ما يُغْمزَ فيعاب به، ولا مطعن»[3]، فهذه دلالة معنوية على العيب عامة، لا على عيب بعينه خاصة، فالمعنى المتجاذَب إذن - وهو الضآلة وقلة الغنَاء - أقمن بالانتساب إلى «قمز»، لا إلى «غمز».

* * *

٢.ب.أمثلة لا تتحقق فيها العلاقة الصوتية:

ينهض هذا القسم - في معظمه - على أمثلة انفرد بها أبو الطيب اللغوي (ت٣٥١هـ). وهي أمثلة تعوزها العلاقة الصوتية (اتحاد المخرج أو تقاربه)، وذلك مثل ما أورده من أمثلة في الأبواب الآتية:

- الباء والقاف[4].
- التاء والقاف[5].
- الدال والقاف[6].
- السين والقاف[7].
- القاف واللام[8].
- القاف والنون[9]... إلخ.

(١) وانظر: المقاييس (غمز): ٤/٢٩٤، والمفردات ص٦١٤-٦١٥.
(٢) انظر: اللسان (غمز): ٥/٣٢٩٦، والنهاية: ٣/٣٨٥٠.
(٣) انظر: اللسان: (غمز) ٥/٣٢٩٧.
(٤) الإبدال: ١/٣٠.
(٥) الإبدال: ١/١٣٨.
(٦) الإبدال: ١/٣٨٤.
(٧) الإبدال: ١/٢٠٣.
(٨) الإبدال: ١/٣٦٥.
(٩) الإبدال: ١/٣٦٩.

وقد تبيَّن لي من خلال فحص هذه الأمثلة، أنها تخرج - في جمهورها - من دائرة الإبدال إلى دائرة الترادف[1] أو شبه الترادف[2] near synonymy - إذ تبيَّن - بالبحث - أصالةُ المعنى التجاذَب في كلٍّ من جذرى الاستعمالين المزعوم حصول الإبدال بينهما، وذلك مما ينفي - فضلاً عن إعواز العلاقة الصوتية - مَظِنّة الإبدال، ويؤكِّد اقتصار القول بالإبدال على تلك الأمثلة التي تتميز بأن المعنى المتجاذَب أصيل في بعضها، ودخيل في نظائرها، فضلاً عن أنها تتوزَّع مخارج صوتية واحدة، أو متقاربة، كما مَرّ.

فمن تلك الأمثلة التي أوردها أبو الطيب: أزواج الاستعمالات الآتية:

(ابتسر - اقتسر):

قال أبو الطيّب - نقلاً عن الفرّاء (ت٢٠٧هـ): «الفَرّاء: يقال: ابتسرته ابتسارًا، واقتسرته اقتسارًا؟: إذا استكرهته»[3].

فمعنى «الاستكراه» أصيلٌ في استعمالات كلٍ من الجذرين (بسر - قسر) مع اختلاف صورته في كلٍ:

• ففي «بسر»، تتمثل صورة الاستكراه في «أخذ الشيء قبل أوانه»[4]، كما في قولهم:

- «بَسَرَ غريمَه»: إذا تقاضاه قبل محلّ المال.

(١) وانظر: ظاهرة الإبدال اللغوي ص١٣٦.
(٢) يميِّز المحدثون عادة بين نوعين أساسيين من الترادف هما: الترادف المطلق أو التام، وشبه الترادف أو الترادف الفضفاض. فالأول (التام) يُشترط للقول بوقوعه حصول اتفاق تام في المعنى الأساسي والمعاني الهامشية، مع القابلية للتبادل في كل السياقات الممكنة؛ وهو لهذا نادر الوقوع. وأما الثاني: فيكفي للقول بوقوعه حصول تقارب كبير في المعنى، مع القابلية للتبادل في بعض السياقات، وهذا النوع الأخير من الترادف هو النوع الشائع، وتدخل معظم المترادفات في نطاقه.
وانظر في تفصيل القول في ذلك: د. أحمد مختار عمر: علم الدلالة ص٢٢٠-٢٣١.
(٣) الإبدال: ١/٣١.
(٤) انظر: المقاييس (بسر): ١/٢٤٩، والمفردات ص١٢٢.

Scanned with CamScanner

- و«بَسَرَ الدُّمَّلَ»: إذا عصره قبل أن ينقيَّح[1] (قبل نضجه).

• **وفى «قسر»، تتمثل صورة الاستكراه فى «القهر على غير الإرادة»[2]، كما فى قولهم:**

- «قَسَره على الأمر واقتسَره»: إذا أكرهه عليه.

- و«القَسْوَرة» للعزيز يقتسر غيره، أى: يقهره[3].

(يحرف - يقرف):

قال أبو الطيب: «يقال: هو يحرِف لعياله حَرْفًا، ويقرِف لهم قَرْفًا، أى: يكسب»[4].

فالدلالة على «الكَسْب» أصيلة فى كلا الجذرين (حرف - قرف):

• **ففى «حرف»، نجد قولهم:**

- «الحِرفة».. اسم من الاحتراف، وهو الاكتساب، يقال: هو يحرِف لعياله ويحترف.. بمعنى يكتسب من هاهنا وهاهنا»[5].

- واشتقاق ذلك من «حَرْف الشىء»، وهو جانبه وناحيته، فـ«الحِرْفِى» يكتسب - ويحصِّل - «حَرْفًا» من هنا، وآخر من هناك «يكتسب من هاهنا وهاهنا»[6] شيئًا فشيئًا.

• **وفى «قرف»، نجد قولهم:**

- «اقترف المال: اقتناه، والقِرْفَة: الكَسْب»[7].

(١) انظر: اللسان: (بسر) ١/٢٧٩.
(٢) وانظر: المقاييس (قسر) ٥/٨٨، والمفردات ص٦٧٠.
(٣) انظر: اللسان (قسر: ٥/٣٦٢٣.
(٤) الإبدال: ١/٣٠٤.
(٥) اللسان: (حرف) ٢/٨٣٩.
(٦) انظر: اللسان (حرف) ٢/٨٣٨.
(٧) اللسان (قرف) ٥/٣٦٠٠.

واشتقاق ذلك من «القَرْف» بمعنى: كشْط قِشرة الشىء (كقشرة القرحة»[1]، فعملية «القَرْف» - هذه - تقتضى كَشْط القِشرة - وهى طبقة رقيقة - شيئًا فشيئًا؛ وكذلك: الكَسْب، يحصل - عادة - بالاحتياز شيئًا فشيئًا، كما يفعل التجار ونحوهم.

وقريب من استعمال «القَرْف» - وهو بمعنى قشر القرحة ونحوها - فى معنى الاكتساب: استعمال «الجَرح» فى المعنى نفسه[2].

(اختر - اقتر):

قال أبو الطيب: «ويقال: قد أَحْتَر على عياله الإنفاقَ، وأَقْتَرَ عليهم: إذا ضيَّق وقلَّل، وهو الإحتار والإقتار، وحتَّر وقتَّر»[3].

فهذه الدلالة المتجاذَبة أصيلة فى استعمالات كلٍ من الجذرين (حتر - قتر) مع اختلاف الصورة أو الاعتبار:

• **ففى «حتر»، تتمثل صورة «التضييق»، فى معنى «الكف عن الامتداد واللانبساط»، المتحقق فى مجمل استعمالات الجذر، كقولهم:**

- «حَتَار الغِرْبال» لإطاره[4]، وهو حَدّه الذى يُحيط به وينُهى امتداده (يكُفّه). وكذلك الشأن فى قولهم: «حَتَار العين» لحروف أجفانها التى تلتقى عند التغميض، و«حَتَار الأذن» لكِفاف حروف غراضيفها.

- ومن ذلك، اشتُقّ الاستعمال المذكور فى نصّ أبى الطيب: أَحْتَر على عياله، أى: ضيّق عليهم، ولم «يتوسَّع» فى الإنفاق.

• **وفى «قتر» تضييق ممثل فى ملمح «القلة»، المتحقق فى كثير من استعمالات الجذر:**

(١) انظر: اللسان (قرف) ٥/٣٥٩٩-٣٦٠٠.
(٢) انظر: اللسان (جرح) ١/٥٨٧.
(٣) الإبدال: ١/٣٠٥.
(٤) انظر: اللسان (حتر) ٢/٧٦٩.

Scanned with CamScanner

(٢) الإبدال ٢/٣٦٢.

(٣) الإبدال (قر) ٥/٣٦٢١.

(٦) وتنظر

Scanned with CamScanner

٣. تأثير القاف فى مجاوراتها

يتبيَّن من دراسة بعض الاستعمالات اللغوية التى اشتملتْ - فيما اشتملتْ على صوت القاف، وتنوعت الصور النطقية للأصوات المجاورة لها - يتبيَّن أن للقاف التأثير الأساسى فى تحقُّق هذه الصور النطقية. ويتبيَّن - كذلك - أن مناط هذا التأثير مؤسَّس - فى المقام الأول - على اتصال القاف بصفة التفخيم مع الجهر، أو مع الهمس.

فأمّا الجهر والهمس، فقد سبق أن ذكرتُ أن القاف البدوية الشائعة تتصف بالجهر، فى حين تتصف القاف التميمة الأقلّ شيوعًا بالهمس، وقد رجحتُ أن هذه الأخيرة هى نفسها قاف القراء المعاصرة[١].

وأما التفخيم[٢]، فقد عدّ ابن الجَزَرى (ت٨٣٣هـ) الأصوات المستعلية - ومنها القاف - هى الأصوات المفخّمة فى العربية؛ فقال: «والاستعلاء من صفات القوة، وهى (أى: حروف الاستعلاء) سبعة، يجمعها قولُك: قِظْ خص ضغط، وهى حروف التفخيم على الصواب... وقيل: حروف التفخيم هى حروف الإطباق، ولا شك أنها أقواها تفخيمًا»[٣].

ويتفق المحدثون - مع القدامى - فى تقرير أن لصوت القاف «قيمة تفخيمية»، بيد أن المحدثين يصنفونه - وكذلك الخاء والغين - فى زمرة الأصوات المفخَّمة «تفخيمًا

(١) انظر الحديث المفصل عن ذلك فى المبحث الأول لدى الحديث عن كلٍ من القاف البدوية، وقاف القرّاء.

(٢) يُعَرَّف التفخيم بأنه «نطق الحرف سمينًا أو غليظًا يمتلىء الفم بصداه». المختصر فى أصوات اللغة العربية ص٢٢٧.

(٣) النشر فى القراءات العشر ١/٢٠٢-٢٠٣. وانظر - كذلك - لطائف الإشارات ١/١٩٨. وانظر فى تفصيل القول فى المواضع التى تحكم درجة تفخيم جملة هذه الأصوات: التمهيد فى علم التجويد ص١١٩-١٢٠. وانظر فى التعليق على كلام القدماء فى هذا الصدد: مناهج البحث فى اللغة ص١٨٧.

جزئيًا»، وذلك فى مقابل الأصوات الكاملة التفخيم (ص - ض - ط - ظ)، وتلك التي تتراوح بين التفخيم والترقيق حسب قيود موقعية صوتية (ر - ل)[١].

وتفسير ذلك هو أن «التفخيم الكامل» يسبِّبه ارتفاعُ مؤخَّر اللسان تجاه مؤخَّر الحنك اللين، مع تراجع مؤخَّر اللسان - كذلك - إلى الخلف نحو الحلق؛ فهذه الحركات العضوية «تغيّر من شكل حجرات الرنين بالقدر الذى يعطى الصوت هذه القيمة التفخيمية»[٢]. وأما لدى نطق القاف فإن النقطة التى يقترب فيها مؤخَّر اللسان من الجدر الخلفى للحلق تكون فوق تلك التى يحدث عندها الاقتراب لدى نطق الأصوات الكاملة التفخيم؛ ولذا فإن القاف تُفخَّم، ولكنه تفخيم جزئى، فى مقابل التفخيم الكامل لأصوات الصاد والضاد والطاء والظاء[٣].

وقد سبق أن أوردت - آنفًا - كلام ابن الجَزَرى عن أن الأصوات المطبقة (ص، ض، ط، ظ) أكثر تفخيمًا من تلك المستعلية فقط (خ - غ - ق)، بما يتطابق - تقريبًا - مع كلام المحدثين.

ولا يُلتفت - هاهنا - إلى وجود تباين - فى صفتى الجهر/ الهمس - بين القاف المجهورة التى وصفها القدماء (= القاف البدوية الشائعة)، وتلك المهموسة التى يتحدث بشأن تفخيمها المحدثون (= قاف القراء = القاف التميمية)؛ إذ المعوَّل عليه - هنا - هو كيفية النطق (ارتفاع مؤخَّر اللسان تجاه اللهاة أو مؤخَّر الحنك اللين...)؛ فهى السبب - لا صفة الجهر أو الهمس - فى إحداث التفخيم، وهذه الكيفية واحدة - تقريبًا - فى نطق القافين، على ما بُيِّن فى المبحث الأوّل.

ونستطيع - بعد - أن نقف على شطر من الأمثلة التى يتجلى فيها - على نحو

(١) انظر: دراسة الصوت اللغوى ص٣٢٥-٣٢٦، ود. الحولى: الأصوات اللغوية ص٢١٥-٢١٦. وانظر - كذلك: دروس فى علم أصوات العربية ص١٠٧.

(٢) مناهج البحث فى اللغة ص١١٦. والنظر - كذلك - د. الحولى: الأصوات اللغوية ص٢١٤.

(٣) انظر: مناهج البحث فى اللغة ص١٢٤-١٢٥.

Scanned with CamScanner

مطرد أو شبه مطرد - تأثير القاف فى مجاوراتها، بسبب من اتصافها بصفة التفخيم مصحوبةً بالجهر، أو بالهمس.

ولعلّ أوضح مَجْلًى لهذا التأثير هو ما يصادفنا فى كتب اللغة - وعلى رأسها كتب الإبدال والمعاجم والفصول المخصصة لدراسة أصوات العربية - من تلك الصور النطقية Allophones المتعددة لاستعمالات بعض الجذور المشتملة على أحد الأصوات الصفيرية Sibilants (س - ص - ز) متلوّةً - مباشرة أو بفاصل - بالقاف.

ففى هذا الصدد، نصادف مجموعات ثلاثية - أو ثنائية - تتميّز بما يلى:

- اشتمال كل منها على صوت القاف مسبوقًا بصوت صفيرىّ، ومتلوًا - أو مسبوقًا - بصوت ثالث غير محدَّد.

- اتفاق كل «مجموعة» منها فى المعنى اتفاقًا تامًّا.

وذلك مثل: «السَّقْر» و«الصقر» و«الزقر»، ومثل: «السُّقع» و«الصُّقع» - بمعنى الناحية - وغيرها ما سيُعرض له بالتفصيل لاحقًا.

ويشير القدماء - هنا - إلى وجود خصيصتين لهجيتين تعامليتين (مطردتين) تتعلقان بهذا الشأن:

الأول: إبدال السين صادًا إذا وقعت قبل القاف - وسائر الأصوات المستعلية - سواء أكان ثمة فاصل، أم لم يكن.

الثانية: إبدال السين زايًا قبل القاف خاصة.

* * *

٢.أ. (إبدال) السين صادًا قبل القاف ...

ورد هذا المسلك «التعاملى» فى كتب القدماء: منسوبًا تارة لبنى العَنْبر - من بنى تميم[١] وتارة أخرى دون نسبة، وكأنه مسلك صوتى «تعاملى» عامّ لا تختص به لهجة دون أخرى[٢].

فممن نسب ذلك إلى بنى العنبر - وهو الرأى الراجح[٣]: سيبويه (ت١٨٠هـ)، حيث عقد فى كتابه بابًا بعنوان: «هذا باب ما تُقلَب فيه السين صادًا فى بعض اللغات»، جاء فيه: «تقلبها (أى تَقلب السينَ) القافُ إذا كانت بعدها فى كلمة واحدة، وذلك نحو: صُقت وصبقت ... والخاء والغين بمنزلة القاف ... وإنما يقولها من العرب بنو العنبر»[٤] ويقول أبو حيان الأندلسىّ (ت٧٤٥هـ): «وتُبدل الصاد من السين جوازًا على لغة بنى العنبر، إنْ وليها غينٌ، أو خاء، أو قاف، أو طاء، تقول فى: سَغَبَ، وسخَّر، وسَقَر، وسَطَع: صَغَب، وصَخَّر، وصَقَر، وصَطَع. فإن فصل حرف نحو: أسبغ، أو حرفان نحو: السِّراط، أو ثلاثة نحو: مساليخ، فكذلك؛ تقول: أصْبَغَ، والصراط، ومصاليخ»[٥].

وممن أورد هذا المسلك الصوتى التعاملى دون تخصيص لهجىّ: المبِّرد[٦] (ت٢٨٥هـ)، وابن السَّراج[٧] (ت٣١٦هـ)، وابن جنى[٨] (ت٣٩٢هـ)، وابن السِّيد البَطَلْيَوْسِى[٩] (ت ٥٢١هـ)، وابن عصفور[١٠] (ت٦٦٩هـ)، والرضى

---

(١) وانظر: ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص٢٠٧ - ٢٠٩.

(٢) وانظر: ليتمان: بقايا اللهجات العربية فى الأدب العربى ص١٧، ودروس فى علم أصوات العربية ص٧٣، ود. أنيس: فى اللهجات العربية ص١٢٨، وغالب المطلبى: لهجة تميم وأثرها فى العربية الموحدة ص٩٢، ود. ضاحى عبد الباقى: لغة تميم: دراسة وصفية تاريخية ص١٥٢ - ١٥٣.

(٣) انظر: لغة تميم ص١٥٣ - ١٥٤، ولهجة تميم ص٩٢.

(٤) الكتاب ٤/٤٧٩ - ٤٨٠.

(٥) ارتشاف الضَّرَب ١/٣٢٤ - ٣٢٥. وانظر - كذلك - المساعد على تسهيل الفوائد ٤/٢٢٦.

(٦) انظر: المقتضب: ١/٣٦٠ - ٣٦١.

(٧) انظر: الأصول فى النحو ٣/٤٣١.

(٨) انظر: سر الصناعة ١/٢١١ - ٢١٢، و٢/١٤٢ - ١٤٣.

(٩) انظر: ذكر الفرق بين الأحرف الخمسة ص٣٣٨ - ٣٣٩.

(١٠) انظر: الممتع: ١/٤١٠ - ٤١١.

Scanned with CamScanner

الاستراباذى[1] (ت٦٨٦هـ)، والسُّلسيلى[2] (ت٧٧٠هـ). يقول ابن جنى - مثلاً: «وإذا كان بعد السين غين، أو خاء، أو قاف، أو طاء، جاز قَلْبُها صاداً»[3].

وتقتضى هذه الخصيصة الصوتية التعاملية - حسب ما سبق - أن تكون السين هى الأصل فى الاستعمال، ثم تُبدل إلى صاد جوازًا، إذا وقعتْ قبل أحد الأصوات المستعلية: إما فى لهجة بنى العنبر خاصة - على ما هو الراجح - أو العرب عامة. بيد أن ثَمة رأيًا يُسوِّى فى ذلك بين أن تكون السين هى الأصل، فتُنطق صاداً، أو أن تكون الصاد هى الأصل، فتنطق سيناً؛ يقول الفارابى (ت٣٥٠هـ) - مثلاً -: «السَّقْر: لغة فى الصقر، وكذلك يفعلون فى الحرف إذا كانت فيه الصاد مع القاف»[4].

* * *

٢-ب-(إبدال) السين (والصاد) زايًا قبل القاف:

وردتْ تلك الخصيصةُ منسوبةً إلى قبلية «كلب» - إحدى قبائل قضاعة الكبيرة[5] تارة، وتارة أخرى غير منسوبة، وكأنها مسلك عام:

فممن نسَبها: ابن جنى (ت٣٩٢هـ)، وذلك فى قوله: «وكَلْب تقلب السين قبل القاف خاصة زايًا، فيقولون فى سَقْر: زَقْر، وفى (مسَّ سَقَر): (مسَّ زَقَر)، وشاة زَقْعاء فى صَقْعاء»[6]. وكذلك صَنَع ابن يعيش[7] (ت٦٤٣هـ)، والرضى الاستراباذى[8] (ت٦٨٦هـ)، وأبو حيان الأندلسى[9] (ت٧٥٤هـ).

(١) انظر: شرح الشافية: ٣/٢٣٠-٢٣١.
(٢) انظر: شفاء العليل فى إيضاح التسهيل ٣/١١٢.
(٣) سر الصناعة ١/٢١١-٢١٢.
(٤) ديوان الأدب ١/١٠٨. وانظر - كذلك - المزهر ١/٤٧٣.
(٥) وانظر: جمهرة أنساب العرب ص٤٥٥-٤٥٩.
(٦) سر الصناعة ١/١٩٦. والآية المذكورة فى النص هى من سورة القمر ٥٤/٤٨.
(٧) انظر: شرح المفصل: ١٠/٥٢.
(٨) انظر: شرح الشافية: ٣/٢٣٣.
(٩) ارتشاف الضَّرَب: ١/٣٥٢.

ويشير المثال الأخير الذى أورده ابن جنى (صَقْعَاء - زَقْعاء) إلى انسحاب خصيصة القلب إلى زاى قبل القاف على الصاد أيضًا - فضلاً عن السين - وقد صرَّح ابن عصفور بذلك نصًّا[1].

وفى مقابل ذلك التنسيب، نجد مَنْ يعرض لتلك الخصيصة دون قَصْرها على لهجة بعينها؛ يقول أبو عبيد (ت٢٢٤هـ) - فيما نقله عنه السيوطىّ (ت٩١١هـ): «تدخل الزاى على السين، وربما دخلتْ على الصاد أيضًا؛ إذا كان فى الاسم طاء أو غين أو قاف... نحو: الصندوق والسندوق الزندوق»[2].

ونخلص مما سبق من كلام قدامانا عن هاتين الخصيصتين الصوتيتين التعامليتين - نخلُص إلى شيوع وقوع التبادل بين الأصوات الصفيرية حين تقع قبل الأصوات المستعلية - ومنها القاف - وإن اشتُهرتْ بعض اللهجات بإيثار صوت صفيرىّ خاص دون غيره. يقول الزمخشرىّ (ت٥٣٨هـ): «قوله: (وهو الصقر) بالصاد، والعامة تقول بالسين، وذلك لغة، والزاى لغة ثالثة، وكذلك كل صاد بعدها قاف أو طاء أو غين أو دال، فإن لغات لعرب تختلف فيها»[3].

* * *

٢-جـ-التفسير الصوتى:

يمكننا - بعد - تفسير الخصيصتين الصوتيتين التعامليتين السابقتين فى ضوء (قانون) المماثلة الصوتية[4] assimilation**، تأسيسًا على اتصاف القاف بصفة التفخيم (الجزئى) مع الجهر، أو الهمس كما مرّ:**

(١) انظر: الممتع ١/٤١٢. وانظر: د. أحمد علم الدين الجندى: اللهجات العربية فى التراث ٢/٤٤٩.
(٢) المزهر: ١/٤٧٤. وقد نقل السيوطى هذا النصّ عن كتاب الغريب المصنَّف لابى عبيد، وقد راجعت هذا الكتاب فلم أعثر على النص فى مظانه.
(٣) الزمخشرى: شرح الفصيح ٢/٦٩٣. والضمير فى قوله: «وقوله...» يعود إلى ثعلب فى «فصيحة». وانظر - كذلك - ابن درستويه: تصحيح الفصيح وشرحه ص٥٠٨. ونلاحظ - بعد - ان الزمخشرى قد ذكر الدال أيضًا مع أصوات القاف والغين والطاء، والدال ليست مستعلية.
(٤) تُعرَّف المماثلة الصوتية بانها «عملية تغير الصوت إلى صوت آخر بسبب تأثير صوت مجاور». = A course in Phonetics, P.98.

Scanned with CamScanner